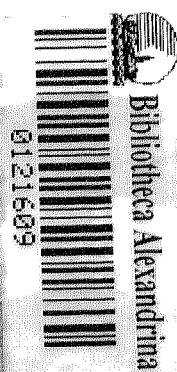


صفحات من التأريخ
السياسي للأقصى



محرقة الجزيرة آيا
نهجراً وأحداث الكرمك ١٩٧٠م



د. الصادق الهاجري المغربي

صفحات من تاريخ السياسي للأزصرار

محررة الجريدة آبا

الهجرة وأحداث الكرمك ١٩٧٠ مـ

د. الصادق الهاجري المربي

الإهـداء

إلى الإمامين الجليلين .. عبد الرحمن المهدى .. القائد المؤسس الذى
بعث ذلك التراث الجهادى الإنسان الوطنى الرائد .. والصديق المهدى
الذى واجه فى رحولة متساهمة التسلط الأنوارقاطى العسكرى الأول ...

ولى شهيد الحق الخالد الإمام اهادى المهدى .. الذى خضبت دماءه
الزكية أرض الوطن العزيز فداءً لعقيدته وفكره - ليكتب من خلال ذلك
أشرف ملاحم عصرنا الحديث - ولـى روح الشهيدة الثريا بـت الزاكى رمز
القوى والسمـاحة والعزـة ... ومثيلاتها الشـهـيدـات . ولـى أرواح الشـهـداء
المـجاـهـدين شـباب وشـيوـخ الأنصـار السـجـدـ المـيـامـين الـذـين استـشهـدوا في مـجاـزـر
أبـا وود نـوبـاوـى مـارـس ١٩٧٠م ولـى أرواح أطـفال خـلـاوـى مـسـجـدـ المـجـرـة
بـود نـوبـاوـى الـذـين حـرقـوا أـحـيـاء بـقـاذـفـاتـ اللـهـبـ ، وـحـصـدـهـمـ رـصـاصـ الغـدرـ
وـالـخـيـانـةـ ليـكـتبـ هـمـ بـذـلـكـ الـخـلـودـ وـالـمـحـدـ ، وـلـيـهـنـاـوـاـ بـمـقـعـدـ صـدقـ عـنـدـ مـلـيـكـ
مـقـتـدـرـ .

الصادق اهادى المهدى

مقدمة

هذا الكتاب عبارة عن مجموعة من المقالات التي سبق أن قمت ببشرها في مجلتي التضامن والأشقاء السودانية - وكان الفرض هو ملء الفراغ بين .. بتسجيل فترة حرجة من تاريخ السودان المعاصر عزلت في أحداث الجزيرة أبا مارس ١٩٧٠ التي لم تجد الرصد والتغطية الالزمة إبان فترة الديمocrاطية الثالثة - بل لعلى لألفي القول جزاً عندما أشير لعملية التعيم المقصود الذي استهدف تلك الحقبة الهامة .

اعتمدت في سرد هذه المقالات على المعايشة في بعض الأحيان وعلى مقابلة عدد من الذين عاصروا بل وشاركوا في تلك الأحداث التاريخية ، وبعض المراجع والوثائق .

وتعود أهمية هذه الحلقات ورصدها في كتاب يعرضها لأول مرة لفترة لقيت الكثير من الإجحاف ، وذلك على الرغم من أهميتها ، ليس بالنسبة لكيان الأنصار فحسب بل لميسرة العمل الوطني الشعبي السوداني .

لقد سعدت كثيراً بردود الفعل التي تمثلت في أسئلة عدد من القراء الذين تسنى لهم الاطلاع على تلك الحلقات ليفحموا بذلك المجال لإمامطة اللثام عن كثير من الموضوعات التي لم تجد حتى الآن الرد المباشر والشاف لها ، ولعل بهذه الجهد المتواضع أكون قد أسهمت في تناول بعض المواضيع الحيوية ، آملأً أن تجد المزيد من التشريح الموضوعي حتى تنجلي الحقيقة ويت畢ين الحق من الباطل - وفي النهاية أرجو أن أقر بأن هذا السفر المتواضع عبارة عن مجموعة أفكار تحمل الانطباع العام لواقع عشته واحتزنته وسجلته في ذاكرى وليست هي بالبحث الأكاديمي العلمي المعروف

خلفية تاريخية

إن الثورة الإسلامية التي فجرها الإمام محمد أحمد المهدي بن عبد الله في نهاية القرن الماضي وما حملته من مضمون إنساني شامل، بعد أن خاضت قياداتها أشرف المعارك ضد الحكم التركي لإقامة دولة إسلامية ، كان ينبغي لها أن تتجاوز حدود السودان لتعظيم مختلف أرجاء العالم الإسلامي الذي ظل تحت قبضة الإمبراطورية العثمانية .

وذلك أن موقف الإمام المهدي المعروف من الثورة العرابية في مصر يقدم الدليل القاطع علىَّ بعد القومي العربي الإسلامي الشامل الذي اتسمت به تلك الثورة ، فقد أراد الإمام المهدي أن يفتدى الشائر العربي البطل أحمد عرابي بالجناز ال غردون ، من جهة أخرى فقد أبدى الإمام المهدي تعاطفاً كبيراً مع دعوة الإمام محمد بن عبد الوهاب في الجزيرة العربية وكاتب الشيخ السنوسى لنصرة الثورة والدعوة الإسلامية .

ولد الإمام محمد المهدي بن عبد الله في جزيرة الأشراف في منطقة دنقلا بشمال السودان من أسرة يمتد نسبها إلى الحسن السبط وقد عرف عنه منذ صغره النباهة والتعلق بالدراسة مما جعله يواصل ذلك الطريق تفضيلاً على صناعة المراكب التي كان يمارسها أهله ، وقد قاده طريق العلم للتنقل بين مختلف الخلاوى الإسلامية في السودان ، ولعل أسفاره المتعددة لهذا الغرض مكتت له من التعرف على أحوال السودان عامة على أيام حكم الأتراك وما يعانيه أهله من ظلم فآثار العزلة وأقام لنفسه غاراً في الجزيرة «أبا» للعبادة ثم بدأ نشر دعوته بمهديته والتکلیف بمحاربة الأتراك الذين أفسدوا وأباحوا ما هو محظور في الإسلام .

- ٨ -

المصادر التي بين أيدينا تقول أن الغالبية العظمى من السودانيين وقتها آمنوا بمهديته والتغروا حول دعوته وما جاء منها من تكليف بالجهاد لإقامة شرع الله، ولم يشذ عن إجماع الأمة إلا نفر قليل من لهم مصالح ارتبطت بحكم الأترار آنذاك، وعموماً فظهور المهدى المنتظر لم يكن مستبعداً وقتها في السودان، فلقد ذكرت المصادر أن التبؤ بظهور المهدى لإزالة المظالم عن أهله أصبح وشيكاً، وشكل ذلك التبؤ جزءاً من الأدب الشعبي العام تناقله الصغار والكبار في جلساتهم و مجالس سرهم، ومهما يكن من اختلاف في الأمر فقد كفى بعضهم بمقولة (كان مهدى مهدى وكان ما مهدى فحل رجال) وهكذا فقد استطاع الإمام المهدى بعقر بيته الفدنة علماءً وانضباطاً في السلوك أن يكون ملتفاً بين الرجال وأن يلهب حماسة السودانيين عموماً وأن يترجم شعارهم الذي رفعوه لمناهضة الأترار (عشرة في تربة ولا ريال في طلبه) للتمرد على جبائية الضرائب والعشور إلى مواجهة عسكرية إسلامية انتهت بزوال حكمهم عن السودان وإقامة دولة شرع الله فيه. لقد أيده في ذلك النهج وفي تلك الثورة على المظالم العثمانية جمال الدين الأفلاقي والإمام محمد عبده في مجلتهما «العروة الوثقى» التي كانت تصدر باللغة العربية في باريس، ففي أكثر من عدد من تلك المجلة كتبها يناصران جماعة الشيخ محمد أحمد كما كانوا يسمونه (ف إشارة واضحة للإمام محمد أحمد المهدى) .

كان نهج الإمام المهدى في كل تعاليمه التي وردت في منشوراته وفتاواه التي نقلها عنه السلف للخلف هو نهج كتاب الله وسنة رسوله، ولم يعرف عنه التشيع أو الدعوة لأى مذهب بعينه، فقد قيل عنه أنه قال عندما سُئل عن رأيه في أئمة المذاهب السابقين (ما جاء في كتاب الله فوق رؤوسنا وما جاء من سنة على لسان نبيه محمد عليه السلام) فوق أكتافنا أما أئمة المذاهب فهم رجال ونحن رجال ولكل مقام حال ولكل زمان رجال) .

أخلص إلى القول أن الإمام المهدى وأنصاره إنما هم نماذج للأصالة السودانية التي أعجب بها الكثيرون، فهم أهل سنة ومع الجماعة المسلمة جمعتهم مبادئ وظروف شدة تحت رايات الثورة الأم فجاءوها من كل حدب

- ٩ -

وندب ومن كل الأعراق السودانية مهليين مكربين بأن لا إله إلا الله محمد رسول الله، إلى آخر تلك الشعارات السامية، فانتظم تحت الرأي الزرقاء بقيادة الخليفة عبد الله التعايشي كل أبناء غرب السودان، وتحت الرأي الصفراء بقيادة خليفته على ود حبلى كل أبناء النيلين الأبيض والأزرق وتحت الرأي البيضاء بقيادته هو نفسه ثم الخليفة محمد شريف باق أهل السودان الذين آمنوا بالدعوة، تحركت تلك الرايات فأسقطت الحكم الأجنبي عن السودان ودافعت عن الدولة يوم أن استباحتها قوات الاحتلال (المصرية - الإنكليزية) في سهل كرري وكانتا على الجانب الجنوبي من جبل سرقام وانقلبا مهزومين أمام سلاح أشد فتكا^(١) وأكثر ضراوة وإن فاقوه شجاعة وإقداماً. فكانوا الكاظمين الغيط على مضض وحسرة شديدين.

عهد الإمام عبد الرحمن^(٢) :

أما وجه الأنصار المعاصر، فقد بعث الإمام عبد الرحمن المهدى بعد العام ١٩٢٠ عندما فرض نفسه آنذاك على ممثل دولى الحكم الثنائى (مصر وبريطانيا) وسمحوا له بممارسة نشاط اقتصادى محدود لكسب العيش لاثر المطاردة المتصلة بعد مذبحة الشカابة ١٨٩٩ والإقامة الجبرية في جزيرة الفيل بود مدنى عاصمة الإقليم الأوسط، لم يكن الأمر بهذه البساطة فقد سجلت مراسلات دولى الحكم الثنائى وحكامهم المحليين في السودان عدداً من التحفظات على فسح المجال لأى نشاط أياً كان نوعه لأى من أبناء المهدى تحسباً من بث الروح في الدعوة الأنصارية الإسلامية المتطرفة كما وصفوها وشهدوها إبان الثورة وحكم الدولة، ولعل سلاطين باشا اليهودى (المساوى الجنسية) كان أكثر اشتياطاً من غيره في رفض ذلك القرار لما عاشه معهم فترة حبسه في معسكراتهم على أيام الثورة، ولكن التناقضات والتوازنات بين دولى الحكم الثنائى سمحت بالأمر أخيراً. ومن جهة أخرى أدرك الإمام عبد الرحمن

(١) راجع كتاب وнстون تشرشل (حرب النهر).

(٢) السودان للسودانيين (عبد الرحمن على طه).

- ١٠ -

بعد معركة الشكابية التي وقعت على شواطئ النيل الأزرق بأقل من عامين من معركة كرري والتي أصيب فيها إصابة مباشرة بالرصاص ورأى أمام عينيه التصفية الجسدية لأخويه الفاضل والبشيري وعمه الخليفة شريف الخليفة الثالث للمهدى رمياً بالرصاص ، أدرك أنهم يتعاملون ليس مع عدو تفوق عليهم بالسلاح كما حدث في كرري ، بل إنهم يتعاملون مع قتلة متورثين ، لا يراعون العرف ولا القيم التي تسود بين المنتصر والمهزوم وأسرى الحرب ، فقد قتلواهم غدراً بتهمة التحرش بمحكم دولتى الحكم الثنائى رغم علمهم المسبق بأنهم أناس مسلمون عزل من السلاح يفلحون الأرض للعيش الكريم ، عليه فقد بدا واضحأً له أن قوات الاحتلال الإنجليزية - المصرية تريد تصفية كل من ارتبط اسمه بالإمام المهدى أو الثورة المهدية ، لكن شاء قدره هو أن يفلت من تلك التصفية ، لعل كل ذلك قد جال بخاطره عندما طلب منه بعض شيوخ الأنصار في الجزيرة «أبا» وهم بكمال السلاح أنهم يريدون الجهاد ، فأجاب بنعم لكنه جهاد من نوع آخر تغيرت فيه الإستراتيجية ووسائل الصدام المباشر ؛ لهذا عمد الإمام عبد الرحمن على تجميع الأنصار بعد أن تفرق القوم أيدى سباً بعد هزيمة معركة كرري فكان الاتصال الشخصى وغير المنوبين والأصفياء والمقربين بكل من كان له عاطفة مع شعارات الثورة المهدية ، وكان مكان اللقاء في الجزيرة أبا . فقد نفذ ذلك التجمع حركة التعمير التى خطط لها الإمام عبد الرحمن وبنهاية الثلاثينيات أتت تلك المجهودات أكلها ، وبها اكتمل النصاب الاقتصادى والاجتماعى لبداية عمل سياسى مجید رفع شعار (لا شيع ولا طائف ولا أحزاب ، ديننا الإسلام ووطننا السودان) .

السودان للسودانيين

وخلالمة القول فلقد كان للانضباط العمل والسلوكى شأن كبير في بروز الأنصار كقوة سياسية على السطح في عهد حكم دولتى الحكم الثنائى بعدما ظن الكثيرون نهايتها على وادي كرري ١٨٩٨ . وقد استقطب ذلك التوجه في نهاية المطاف كل الولايات الأنصارية المعروفة على الساحة السودانية وتعدها

- ١١ -

إلى كسب المحايدين والنافرین، وقد أبقى الإمام عبد الرحمن على شكل وقوة وانضباط الأنصار بعد أن عدل وأضاف إلى المنهج الجهادي الحالص، العمل السياسي الهام والمحاورة والمناظرة وقبول الرأي الآخر والتعامل بالانتخابات وقبول المفهوم والنصر فيها بروح رياضية عالية ثم التحالف مع آخرين لتحقيق سياسات ما، ولا شك أن هذا هو أسلوب سياسي معاصر مكن جماعة الأنصار أن تعيش عصرها وتحقق الأهداف نفسها التي رفعتها الثورة المهدية ولكن بنجاح آخر.

لقد كانت قوة الأنصار الاقتصادية والسياسية تحت قيادة الإمام عبد الرحمن دعماً لنشاط الخريجين في الإصلاح الاجتماعي والتعليمي الذي بنوه في السودان ، ودعماً سياسياً قوياً لمؤتمر الخريجين العام ١٩٣٨ ، حينما طلب في مذكرة المؤتمر المشهورة في عام ١٩٤٢ من دولتى الحكم الثنائى منع السودان استقلاله بعد نهاية الحرب العالمية الثانية ، وما أن انشق مؤتمر الخريجين بعد ذلك التاريخ على نفسه بين مؤيد للدعوة الاستقلال التام للسودان عن دولتى الحكم الثنائى أو الاتحاد مع مصر ، حتى أسس حزب الأمة عام ١٩٤٥ ليستوعب كل الجبهات الاستقلالية التي رفعت شعار «السودان للسودانيين» والذي تحقق في ١٩٥٦/١/١ وبه استعاد السودان سيادته .

هذا من ناحية ، أما الناحية الأخرى فقد ظل الإمام عبد الرحمن يرقب تحركات دولتى الحكم الثنائى وما يضمرانه نحو مستقبل البلاد إلى أن حسم الأمر بقيام ثورة الضباط الأحرار في ٢٣ تموز (يوليو) ١٩٥٢ والتي وافقت على مبدأ تقرير المصير للسودانيين ، وقد نال السودان استقلاله في ١٩٥٦/١/١ حينما انحاز البرلمان السوداني المنتخب بالإجماع إلى رأية الاستقلال^(١) .

(١) راجع كتاب السودان للسودانيين : عبد الرحمن على مهـ .

أحداث الجزيرة «أبا»

جاء انقلاب مايو في صيحة ٢٥ مايو (مايو) ١٩٦٩ وقد صادف ذلك وجود الإمام الماهي المهدى في الجزيرة أبا الصامدة أثناء تلك الزيارات الدورية التي كان يقوم بها بين الفينة والأخرى . و كنت أنا موجوداً في منزل الأسرة بمحى ودنباوى بمدينة أم درمان ، وكان شقيقى نصر الدين الماهي نائب رئيس حزب الأمة الحالى يدرس فى مدرسة أم درمان الأهلية العليا . أما شقيقى الأكبر المرحوم الفاضل فقد كان بمحوار والده فى الجزيرة أبا .

و قبل ذلك كانت الحياة تسير بصورة عادية حيث يتواجد الأنصار بأعداد هائلة إلى دار الإمام بأم درمان كما جرت العادة ، وإن كان عدم وجود الإمام الماهي بالعاصمة قد قلل من أعداد المصليين حينها كانوا يتواذون بأعداد ملحوظة لتأدية شعائر الصلاة من خلف الإمام الماهي ليتجمعوا بعد ذلك وهم يرددون أناشيدهم الدينية التى تؤكد التزامهم بالعهد والبيعة التى قطعواها للإمام .

كان منظر الأنصار وهم يرتدون ثيابهم الناصعة البياض ويصطفون بنظام وهم يحملون الأعلام ، والعمامة البيضاء تشع من رؤوسهم المرفوعة في تحدى وكبراء وشيوخ نبيل بعد أن وضعوا على أكتافهم شارة الأنصار المعروفة بألوانها البراقة الأصفر والأحمر والأسود ليهتفوا في تهجد وإيمان عظيم بأناشيد الثورة والفاء وعلى رأسهم شيخ وقرر وقد ارتفع صوته عالياً وهو يقول :

إلى الأئمـاـم يا شـبـابـ الإـمـاـم

- ١٤ -

هذا الإمام قد سما زخم النجوم في السما
وإن يقل خوضوا الدما نفعنا ونحسن إنما
جنوده وقت الصدام

ويردد بعده الحاضرون النداء نفسه فيقطع ذلك هتافات الله أكبر والله
الحمد بنبرات حادة وقوية تعجاوب معها الأفاق لتحكى ملحمة من ملاحم
الفداء والتضحية ونكران الذات حين تخلص تلك الأجساد النقية الطاهرة من
كل ما يربطها بذلك العالم المادي لتنطلق في رحاب سرمدي خالد يشهد على
وحданية الله وقدرته .

كانت تلك الصور الرائعة تنطبع في ذاكرتي وأنا صغير أراقب في غبطة
حقيقة وأسرع بخطي حشيشة للحق بذلك الموكب المهيبي الذي كان ينتهي بنهاية
صلوة الجمعة ليعود من هنالك إلى دار الإمام لتناول طعام الغداء معه ، وينبدأ
الحوار المفتوح بين الإمام والأنصار يلتقي فيه بكل تلك الوفود ويستمع إلى
مشاكلهم في اتصال يقف من خلاله على كافة مشاكلهم ويأدر بالتوجيه لوضع
الحلول الناجعة .

كانت تلك المشاهد بمثابة برمان مصغر يتكرر كل أسبوع وكانت الأحظ
برغم صغر سني تشوق واستعداد والدى الراحل إلى تلك اللقاءات التي كانت
تذكى ذلك التراث وتؤدى إلى تقوية وثائق الإيمان القائم على الحبة والعقيقة
الإسلامية من دون أغراض شخصية أو مطالب دنيوية . وكان ذلك هو السر
الكبير خلف تمسك وصلابة هذا الكيان الجهادى عبر السنوات الطوال .

تفاصيل معركة أبا :

٢٤ مايو ١٩٦٩ .

الحياة تسير هادئة ، فلا سحب أو غيمون تنذر بدنو عاصفة .. ولكنـه كان
هدوءـ ما قبل العاصفة .

مجموعة من الجنود لا تزيد عن ٢٥٠ فرداً تتحرك في هدوء مستترة

- ١٥ -

بالظلم. لتقوم بوأد النظام الديمقراطي في صبيحة الخامس والعشرين من مايو المشئوم وبلا مجهد أو مقاومة تذكر استولى أولئك النفر على السلطة وفي ساعات معدودات ..

أين القادة؟

الإمام الهاشمي، كان بالجزيرة أباً والتي وصلها على متن طائرته الخاصة في الثالث والعشرين من مايو ١٩٦٩ .

الصادق المهدي، كان بالعاصمة واتجه بعد الانقلاب مباشرة إلى الجزيرة أباً للتنسيق مع عمه الإمام الهاشمي .

السيد إسماعيل الأزهري رئيس مجلس السيادة، كان موجوداً بالعاصمة، واعتقل بسجن كوبير، الشيخ محمد محمد الصادق الكاروري غادر الخرطوم فوراً وانضم إلى الإمام الهاشمي بالجزيرة أباً مثلاً لجبهة الميثاق .

لقد لعبت الظروف وسوء التقدير واللامبالاة دوراً كبيراً في إنجاح الانقلاب دون مقاومة تذكر فكل الشواهد كانت تنذر بقدوم عاصفة هوجاء.. في مارس ١٩٦٩ ترددت معلومات بأن الرائدين أبو القاسم محمد إبراهيم، وزين العابدين محمد أحمد عبد القادر يخططان لمحاولة انقلابية واستبعد المحققون ذلك وقالوا أن الضابطين من «المعumin المرفهين» .. ولا يوجد احتمال لمشاركتهما في أمر مثل هذا .

وتجدر الإشارة إلى أن السيد الصادق ابن أخي الإمام كان قد غادر الجزيرة أباً في وقت مبكر من تلك المجزرة البشعة للدخول في حوار مع النظام بالعاصمة وذلك على ضوء نصيحة بعض المقربين له علمًا بأن الإمام الهاشمي كان قد حنره من مغبة الدخول في ذلك؛ وذلك تحسيناً لغدر نظام التميمي ولكن السيد الصادق فضل الذهاب للجتمع بالانقلابيين فحدث ما توقعه الإمام حيث تم اعتقاله ونقله إلى حامية شندي بالإقليم الشمالي ..

- ١٦ -

الجزيرية أبا :

كانت الجزيرية أبا كخلية نحل تموح بعشرات الألوف من الأنصار، ومن الصعب تحديد أو تقدير أعداد الذين حضروا من أنحاء السودان بصورة دقيقة فلقد كانت الجزيرية تستقبل الآلاف منهم كل يوم. قسم منهم كان يلتقي بالإمام الهادى لتجديده البيعة لحفيد المهدى ولمعرفة آخر تطورات الموقف، ثم يعودون إلى قراهم القرية من الجزيرية مرة أخرى. وهناك قسم آخر وفدى من مناطق بعيدة نائية بعد أن أحسوا بالخطر. وأهمية وجودهم حول الإمام.. هؤلاء لم يكن أ Majority من سيل غير الاستقرار بصورة دائمة بالجزيرة أبا.. ويقدر العليمون بالأمور. أن أعداد هؤلاء تراوحت بين ٤٠ ألفاً و ٧٠ ألفاً. ولقد قارب عدد من حضروا للصلة خلف الإمام في أول عيد فطر بعد الانقلاب ربع مليون أنصارى.

السلیح :

لقد كان سليح الأنصار وتنظيمهم عام ١٩٧٠ هو نفس سليمهم عام ١٨٩٨ ، حراب وسيوف وبعض السلاح النارى العتيق. هذا بالإضافة إلى مجموعة الأسلحة الخاصة بالإمام المهدى.. وت تكون من : رشاشين «بور سعيد» تلقاهما الإمام هدية من مصر، ثلاثة رشاشات «برتا» ورثها من الإمام عبد الرحمن، بندقيتين موريس، خمس بندق رصاص (٣٠٣، ٣٧٥، ٤٠٤) للصيد، بندقيتين خرطوش عيار (١٢).

كان هذا هو كل السلاح الموجود بالجزيرة أبا وهو بلا شك غير مناسب أو صالح لمواجهة قوات الحكومة بمدرعاتها ونفاثاتها..

بعد أن وصلت الأنباء إلى الجزيرية أبا باعتقال السيد الصادق المهدى، بدا الأنصار أكثر حذرًا وتوقعاً لغدر الحكومة.. ويتوجيه من الإمام الهادى أقامت قوات الأنصار نقاط مراقبة، وتفتيش وحراسة عند مداخل الجزيرية بمنطقى طيبة والجاسر، ومنع دخول المشتبه فيه منعاً باتاً للجزيرة. وفي هذا الجو المتوتر، جاء شهر رمضان المبارك.. ومع إطلالة أول يوم

- ١٧ -

فيه أطل على الجزيرة زائر جديد . ففي الثامنة صباحاً حضر إلى الجزيرة أبا ملاحظ مركز شرطة مدينة كوستي ، حاملاً رسالة للإمام يخطره فيها بأن الرائد فاروق حمد الله وزير الداخلية قد وصل إلى مدينة ربك ، ويطلب مقابلته بالجزيرة أبا للباحث . وقال ملاحظ الشرطة أن الرائد أبو القاسم محمد إبراهيم سيكون ضمن الوفد الذي لم تصحبه أي قوات . وفي الحال أصدر الإمام الهادى أوامره للواء أحمد عبد الله حامد بالذهاب إلى ربك لمرافقته الوفد عند دخوله إلى الجزيرة . وأصدر أوامره أيضاً بمنع أي تجمعات استفزازية أو حمل السلاح أثناء الزيارة ، فلقد وجد الإمام أنه من غير اللائق مقابلة ضيوف عزل بقوات تحمل السلاح .

تنفيذاً لهذه الأوامر جميعاً ، تحولت الجزيرة في دقائق معدودات إلى شبه جزيرة مهجورة ، توارى الآلاف من ساكنيها تنفيذاً للأوامر .

وصل اللواء (م) أحمد عبد الله - مندوب الإمام - إلى ربك والتقي هناك بالرائد فاروق والوفد المرافق له والذى كان يضم أيضاً الرائد أبو القاسم محمد إبراهيم . وعندما تحدث معهم علم أن أبو القاسم متمسك بضرورة دخول الوفد إلى الجزيرة على رأس قوة مدرعة ، حاول اللواء أحمد عبد الله إقناعه بعدم جلوى ذلك ، انفعل أبو القاسم ووجه الحديث إلى اللواء أحمد عبد الله قائلاً :

لازم مدرعات ، دى لعبتها كده .. وإن كنت عايزين تولعوها مستعدين نولعها نار ..

وعقب ذلك عادت العربة المقلة للواء أحمد عبد الله بقيادة سائقها إلى الجزيرة أبا ، حاملة الأنباء ، بأن الوفد الحكومي أبدى تمسكه بالدخول إلى الجزيرة على رأس قوة عسكرية ، فأصدر الإمام أوامره فوراً بعودة القوات التي كانت قد صدرت لها الأوامر من قبل بالتجمع في ثكناتها ، وأمر بتشديد الحراسات على منافذ الجزيرة ومخارجها .. فتحولت الجزيرة في لحظة إلى معسكر يموج بالحركة ، سلاح يوزع ، جنود يستلقون خلف السواتر ، آخرون يصدرون

- ١٨ -

الأوامر، توزع القناصة من حملة البنادق على أسوار سراية الإمام وعند مداخلها ، مجموعات أخرى مجهزة بقنابل حارقة « مليتوف » اصطفت أمام المباني المواجهة للسرای مباشرة ..
وفجأة .

هدر صوت عال ، ورفع كل من كان حينها بالجزيرة عينيه إلى السماء، تشكيلاً من الطائرات السكاكى هوك النفاثة تخلق فوق سماء الجزيرة ، وفيما أهل الجزيرة يتبعون بأبصارهم تلك الطائرات ، ووصلت إلى مشارف الجزيرة قافلة الوفد الحكومي ، مدرعة في المقدمة ، عربة (استيشن) ، على جانبها مدرعتان .. وفي المؤخرة ثلاثة عربات محملة بالجنود المدججين بالسلاح ..
تقدمت القافلة إلى وسط الجزيرة ، مثيرة حولها عاصفة من الغبار والدخان والضجيج ، الناس تجمعوا على جانبي الطريق ، ينظرون في هلوء ..

وعند السراية توقفت المدرعة ، دون أن تبطل ما كيّتها ، وتبعها في ذلك بقية الرتل .. لحظات قليلة ، هدرت مدرعة المقدمة ، وتحركت في بطيء غرياً في اتجاه السوق ، لتوقف بجوار سور الشمال الغربى للسرای موجهة مدفوعها (٢٧٦م) في وضع الاستعداد تجاه السوق .. ثم سكتت حركتها في وضع الاستعداد هكذا .

تحركت الثانية نحو مدخل السرای الشمالي ، ووجهت مدفوعها نحو الشارع ، وتوقفت بالقرب منها السيارة (الاستيشن) الحاملة للوفد الحكومي . وبمحاذة سور الشمال الشرقي توقفت المدرعة الثالثة لتوجه مدفوعها إلى داخل السرای .

وفي مواجهة الباب الشمالي اصطفت ناقلات الجنود الثلاث ..

كانت الساعة حينها قد شارت العاشرة صباحاً .. فتح باب الاستيشن ، وبدا أفراد الوفد في الهبوط منه ، واحداً ، واحداً .. وعندما هبطوا جميعاً كانت قد التفت حولهم دائرة متماسكة من شباب الأنصار ، حماية من أي اعتداء ..

- ١٩ -

وتحرك الوفد نحو البوابة الرئيسية للسرى .. أمغار قليلة ، توقف فاروق حمدنا الله ، وتبعه في ذلك بقية أعضاء الوفد .. ثم توجه بالحديث لقائد قوة الحراسة مصدراً إليه الأوامر بعدم الرد على الأنصار مهما حدث .. وعدم القيام بأى عمل استفزازي ، أو التحرش بالأنصار . ولم يصدر أى تعليق من أبو القاسم محمد إبراهيم ..

ثم استأنف الوفد الحكومى تقدمه محاطاً بدائرة من شباب الأنصار ، أمغار قليلة ويصلون إلى غرفة الاجتماع ، بالجناح الجنوبي من السرى .. الوفد يتقدم في هدوء ..
فجأة .

احتراق دائرة الحصار ، في سرعة عاصفة أنصارى يحمل حرية ، ووقف أمام الرائد فاروق حمد الله موجهاً الحرية نحو صدره ، قاب قوسين أو أدنى من قلب الوزير ..
تسمر الجميع .

كأنهم تماثيل شمع ، يحملون في الحرية ، والرجل والوزير .. أية حركة ،
تعنى الموت .. قدم الرجل حر بيته أكثر من صدر الوزير ، وقال في انفعال
وغضب واضح :

خدل الله من عادى الإمام ..

فرد فاروق حمد الله في الحال . وفي هدوء شديد : هو من اللي بيعادي الإمام ؟ ، نحن ضيوف الإمام !

وبعد أن التقت العينان في نظرة طويلة ، ابتعد النصل الفضى عن قلب الوزير ، وعادت الدماء تجري في عروق من شاهدوا الحادث ، بعد أن تجمدت للحظات . لقد واجه فاروق حمد الله الموت حقيقة خلال هذه اللحظات التي مرت علينا كالدهر ، ولكنه كان أثبت ما يكون الرجال .. ولو لا هذا الثبات ما استطاع الرد على الأنصارى ..

- ٢٠ -

أما مراقبوه .. فحدث ولا حرج .. بعد ذلك واصل الوفد طريقه إلى قاعة الاجتماعات ، فيما كانت الطائرات تحلق هادرة على ارتفاع منخفض جداً فوق السرای .

أما خارج السرای :

فلقد صدرت الأوامر للسيارات الثقيلة بدائرة المهدى بالتحرك إلى الشارع الموازى لسرای الإمام وسد الطريق أمام مدرعات الحكومة وخلفها لمنعها من التحرك ، وبذلك فقدت المدرعات أهم مميزاتها القتالية وهي الحركة والقدرة على الانتشار الواسع .

وتم تشكيل مجموعة حراسة بقيادة المرحوم محمد على يونس الحرس الخاص للإمام المهدى لتأمين غرفة الاجتماعات من الداخل والخارج .

وهكذا أصبح الوفد رهينة داخل عرين الأسد ، يحيط به أبطال الأنصار من كل جانب . وبدأ الاجتماع .

من جانب الإمام المهدى .. كان هناك اللواء (م) أحمد عبدالله حامد ، والسيد عبد الرحمن محجوب والسيد الفاضل محمد بشير سكرتر الإمام ، والذى قام بتدوين محضر الاجتماع ، والعمدة شرف الدين عمدة الجزيرة آبا .

ومن جانب الحكومة كان هناك السادة / فاروق عثمان حمدى الله ، أبو القاسم محمد إبراهيم ، يوسف أحمد يوسف ، وضابط مباحث كوسى إبراهيم عبد الكريم .

وكان للجانبين مطالبهما ..

تحددت الوفد الحكومى أولاً: وطالب بضرورة إنشاء نقطة للشرطة بالجزيرة آبا بحفاظاً على الأمن ، واعتراض مثلوا الإمام وقالوا أن الجزيرة آبا ليست في حاجة إلى نقطة شرطة ، فالأمن بها مستتب ، ولم تشهد أبداً طوال تاريخها جريمة قتل أو ما يعكس صفو الأمن .. وأن جميع الخلافات التي تنشأ داخلها تحل ودياً دون تدخل من السلطة . وأن العمددة شرف الدين عمدة

- ٢١ -

الجزيرة قادر وحده على القيام بواجباته دون مساعدة من رجال الشرطة .

ولم يرض أبو القاسم بذلك الرد ، وقبله على مضض موجهاً التهديد للعمدة شرف الدين بأنه (سيلقى عقوبة صارمة) إذا ما حدثت أى مخالفة أمنية أو جريمة قتل .. أثار هذا الحديث غضب الإمام ، وتوتر الجو ، واحتدم الظرفان في الحديث .. ولو لا تدخل فاروق حمدنا الله وتهديته للموقف .. لكان قد انهار الاجتماع .. فلقد أعلن عن قبوله رأى الإمام عن عدم حاجة الجزيرة لنقطة شرطة في الوقت الراهن ، وفي تلك الإظروف بصفة خاصة .

بعد ذلك جاءت مطالب الإمام في ست نقاط :

- ١ - إزالة الواجهة الشيوعية للنظام .
- ٢ - الإفراج عن الصادق المهدي أو تقديميه للمحاكمة لمواجهة التهم الموجهة ضده ، إذا كانت هناك تهم .
- ٣ - الإفراج عن كل المعتقلين السياسيين أو تقديمهم للمحاكمة .
- ٤ - إعادة الحياة النيابية وإجراء استفتاء عام على مسودة الدستور الإسلامي .
- ٥ - عودة الجيش إلى ثكناته .
- ٦ - منع التدخل الأجنبي .

وسلم فاروق تلك المطالب ووعد بدراستها مع بقية أعضاء الحكومة .. وانتهى الاجتماع وبعد من فاروق حمدنا الله أن يتلقى الإمام الرد في أقرب وقت . وب مجرد خروج الوفد من قاعة الاجتماع ، سمع صوت دوى عيارات نارية .. فتحفز الأنصار ، وتحفز جنود الحكومة .. وساد التوتر داخل السراي وخارجها .. وقال البعض : الله أكبر ، لقد بدأت المعركة ..

في سرعة فائقة تحرك رجال الإمام لمعرفة مصدر الطلقات النارية فاكتشفوا أنها صادرة من بندقية أحد الأنصار (محمد دريج) الذي أطلق رصاصاته ابتهاجاً بنجاح المفاوضات .

- ٢٢ -

ولكن الموقف لم ينته بمعروفة ذلك، فمثلاً سمع صوت الطلقات الذين كانوا بالقصر في تلك اللحظة.. فقد سمعها أيضاً رجال الأمن المنتشرون حول السراي، وسارت الشائعات بينهم إنها (إشارة بدء المعركة).. وسمع من كانوا بالسراي أصوات (الله أكبر.. والله الحمد).. تأثيرهم من خارجها.. فما كان من ابن الإمام الشهيد السيد الفاضل المادي المهدى وسعد عباس توفيق ابن حالة الإمام.. إلا أن استقلاباً إحدى سيارات اللاندروفر التي كانت موجودة بالسراي.. وخرجوا لإبلاغ رجال الإمام بحقيقة الموقف.. وتم تأمين خروج الوفد الزائر.

أيام قليلة مرت بعد ذلك، وفيما أهل الجزيرة وقادتها في انتظار رد الحكومة على المطالب التي حلها فاروق حمدنا الله.. وصلت الأنباء بأن الحكومة قد أصدرت قراراً بتأمين ملحق ربك، ومعصرة الزيوت بها وهي إحدى أملاك دلتلة المهدى.. وصدرت الأوامر أيضاً بتعزيز حامية ربك، وحامية كوسى^(*).. وإقامة حامية جديدة عند بلدة (المرابع) الصغير التي تقع على بعد عشرة كيلومترات شمال الجزيرة أبا، وحامية أخرى عند بلدة (الطويلة) التي تواجه الجزيرة أبا من الضفة الغربية.. وأصبح عادياً أن يرى أهل الجزيرة طائرات سلاح الطيران تحلق يومياً وعلى ارتفاع منخفض فوق سماء الجزيرة أبا.

في أواخر فبراير ١٩٧٠ كان قد اكتمل وصول السلاح الذي بعث به السيد الشريف حسين الهندي إلى الجزيرة أبا، والذي وصل إليها في تكتم شديد، ووسط إجراءات تأمينية مكثفة خوفاً من أن يصل خبر ذلك السلاح إلى الحكومة التي بدأت تبث عيونها وترهف أسماعها على امتداد الحدود السودانية - الأثيوبيّة، وداخل معاقل الأنصار بالنيل الأبيض، وعلى رأسها الجزيرة أبا المقر الرئيسي للإمام المادي المهدى، ومعقل الثورة ضد الانقلاب.

السلاح في أغليه كان جديداً ولم تقع على مثله عيون الأنصار من قبل، الذين لم يروا غير قطع قليلة من بنادق قدية ومتالكة، ولم يتقدروا في حياتهم غير استخدام السلاح الأبيض بمختلف أنواعه.. والذى برعوا في استخدامه،

^(*) راجع كتاب مواقف على درب الرمان (الجزء الثالث) عقيد محجوب بدير محمد نور ص ٤١١ .

والتفاخر بالمهارة فيه .. فمنهم من لا يضاهون في حمل السيف واللعب به ..
ومنهم من برع في استخدام الحرية، إلى درجة الاحتراف في استخدامها.

أما هذا السلاح الجديد، ذو الأسماء الغريبة، التي يصعب نطقها، فهم لم يروه من قبل بل ولم يسمعوا به .. (٧٩٠) بندقية من ماركة (لي أنفلدز ٣٠٣) (٣٥٠) قطعة من رشاشات مختلفة منها (برتا) و (ستيرلنج) و (F.A) التشيكي الصنع. (١٢٠) قطعة من الرشاشين (برن) و (براون) المصادين للطائرات . إلى جانب ذلك هناك (١٢) قاذفة خارقة للدروع .. نصفها (بازو كا) والنصف الآخر (آر. نـ. جـ) وقنابل يلوية ومسدسات ضخمة، وجهاز للتفجير من بعد و ٤٠ ألف طلقة مختلفة .

من يعرفون استخدام تلك الأسلحة يعنون على الأصابع .. معظمهم من جماعة الإخوان المسلمين الذين تلقوا في وقت سابق تدريباً مكثفاً على استخدام السلاح الناري الحديث، بمعسكرات خاصة داخل الأراضي الأثيوبية.

وقد كان عدد من قيادتهم يوجد بجوار الإمام بالجزيرة أبا في تلك الظروف القاسية أمثال الشهيد محمد صالح عمر ، الشیخ محمد محمد الصادق الكارورى ، مهدي إبراهيم ، بابكر العوض عبد الله ، عز الدين الشیخ فضل وعبد المطلب بابكر خوجى .

لم يكن هناك من حل بعد أن وصل السلاح، غير عقد دورة تدريب مكثفة لمقاتلى الأنصار ليقفوا من خلال المحاضرات والدروس النظرية والعملية ، على طرق التعامل مع تلك الأسلحة، فكّها وتركيبها ، ومدى ومعدل نيرانها ، وأساليب الضرب المتقطع ، والسريع ، والضرب بالتوجيه أو التثنين .. وإلى غير ذلك من أساليب التعامل مع الأسلحة النارية ، وذلك بعد أن كتب عليهم القتال وظهرت للعيان حقيقة تامر النظام المايوى الملحد .

كان التدريب النظري يتم داخل إحدى قاعات سرای الإمام ، حيث قسم مقاتلو الأنصار إلى مجموعات تعليمية عديدة كل مجموعة تضم عشرة أفراد .

أما التدريب العملي على ضرب النار ، فقد بدأ بتمارين عنيفة وتدريبات

الضبط والربط والقيادة . أما التدريب على الذخيرة الحية ، فلقد تم داخل خندق بمنطقة طيبة ، كان عمقه ثلاثة أمتار و طوله خمسين مترا .. ومزود بمولد كهربائي لإضاءة الخندق ليلاً حتى يتيح للمتدربين وقتاً أطول لمارسة فنون القتال ، واكتساب المهارات المطلوبة في أقصر مدة زمنية ممكنة . فالأحداث وفقاً لتقدير القيادة كانت تتداعى سريعاً ، والمعركة قد تأتي في أية لحظة .

وبعد اكتمال التدريب لم يكن أمام القيادة غير الانتظار فخططة الإمام الهاشمي كانت في جوهرها دفاعية لا هجومية ، تتلخص في انتظار الضربة الأولى ثم الرد عليها .. والصمود لمدة ثلاثة أيام في مواجهة قوات الحكومة . وفي هذه الأثناء - ووفقاً لما وصل إليه الإمام من تقدير للموقف استناداً لما وصله من معلومات - ستتحرك معظم قوات الحكومة من الخرطوم نحو الجزيرة أبا ، مما يتبع الفرصة لقوات الأنصار وقوات الجيش المناوئة للنظام الجديد من الاستيلاء على السلطة . وكان الإمام يرى أيضاً أن الأيام الثلاثة ستكون كافية من أجل إبلاغ قوات الأنصار بغرب السودان بأوامر القتال إذا دعا الأمر .

كانت تلك هي خططة الإمام . التحصن داخل الجزيرة أبا ، وتلقي الضربة الأولى .. ثم الصمود في مواجهة الحكومة لمدة ثلاثة أيام يتمكن خلالها المؤيدون داخل الجيش وخارجهم من التنظيم والتجمع والاستيلاء على السلطة .

ولقد أخطأوا من اعتذروا أن الإمام ومجلس قيادته قد وضعوا خططهم للقضاء على النظام الانقلابي عبر معركة تدور رحاها بالجزيرة أبا التي تبعد ٢٥ كيلومتراً من الخرطوم ، عاصمة السودان ، ومركز السلطة وتخاذل القرار . إن معركة الجزيرة أبا ، إن كان لابد منها لم تكن في تحطيط الإمام وهيئته قيادته ، غير فتيل الاشتغال الأول لتفجير المعركة الشاملة ضد النظام الانقلابي الماركسي .

لقد أثبتت مجرى الأحداث فيما بعد دقة تقدير الإمام ل موقفه وقدرات جنوده .. ولو لا ضعف المعلومات التي اعتمد عليها في وضع خططة المعركة .. لتغيرت النتيجة ، بل ولتغير وجه التاريخ في السودان . لقد كان الإمام على علم

- ٢٥ -

تام بأن المعركة ستكون نتيجتها لصالح قوات الحكومة، فمسرحها أرض مكشوفة بلا جبال وغرة أو غابات كثيفة تساعد قوات الأنصار على الصمود أو الدفاع عن أنفسهم، في مواجهة قوات مزودة بأحدث الأسلحة من دبابات ومدفعية ثقيلة وطائرات مقاتلة. ولذلك فلقد قدر الإمام إمكانيات جنوده على الصمود بثلاثة أيام فقط.. ورغم فشل الخطة.. إلا أن الأنصار قاوموا الهجمات وردوها.. واستبسلوا في الدفاع عن الجزيرة لمدة خمسة أيام، ولو لا الأوامر التي أصدرها الإمام بتسليم الجزيرة أبا حقناً للدماء . لما دخلتها قوات الحكومة إلا على أجساد جميع من كانوا فيها - في ذلك الوقت من الأنصار - ولكنها كانت إرادة الإمام الذي أمر بالتسليم حقناً للدماء .

تنفيذًا لأوامر الإمام الهدى المهدي امتنع الأنصار عن القيام بأى عمل هجومي ، انتظاراً للضربة الأولى .. التي ستكون ساعة الصفر ينتشر بعدها مقاتلوا الأنصار لحماية الجزيرة ، ومنع قوات الحكومة من دخولها لمدة ثلاثة أيام .. يتم خلالها حسم الأمر بالخرطوم .

وكان لابد من الانتظار ، والانتظار في هذه الحالة ليس لهوا ، أو تضييعاً للوقت .. وإنما هو عمل جاد أيضاً .. دراسة لاحتلالات المجموع المتقد ، ووسائله .

استبعد معظم القادة أن يأتي الهجوم ليلاً وذلك لعدة أسباب وضعوها في الاعتبار ، منها خطورة المدرع ليلاً ضد أهداف غير محددة ، وغير ثابتة كما هو الوضع في الجزيرة ، وضعف التدريب على القتال الليلي بسلاح المدرعات آنذاك وافتقار سلاح المدرعات لأجهزة الرؤية الليلية ، ثم شدة انحدار الأرضى ولزوجتها مما يعيق سرعة اقتحام الجزيرة ليلاً .

وهذا تم استبعاد هذا الاحتمال ، وأن يبقى احتلال آخر وهو الأقوى .. ويتمثل في هجوم برمائي تشنه قوات الحكومة على الجزيرة من الناحية الغربية ، وذلك في الساعات الأولى من الفجر مستغلة ما تبقى من ظلام الليل كساتر يحميها حتى الوصول إلى شاطئ الجزيرة ، ومع بزوغ أول شعاع من ضوء

- ٢٦ -

الصباح يمكنها من تخطي العقبات الطبيعية تفتح تلك القوات نيرانها وتشق طريقها إلى داخل الجزيرة .

المجوم المظلي كان أحد الاحتفالات التي وضعها في الاعتبار قادة الأنصار في ذلك الوقت وتوقعوا في هذه الحالة أن يتم الإنزال في شمال الجزيرة حيث الأرض مكشوفة وخالية من أية تجمعات سكنية أو قرى . ثم تقدم هذه القوات إلى وسط الجزيرة تحت لغطاء كثيف من المدفعية بعيدة المدى والقصف الجوى .

تحسباً لكل هذه الاحتفالات .. صدرت الأوامر لقوات الأنصار باليقظة التامة ليلاً في مواقعهم بأطراف الجزيرة .. وحفرت الخنادق وأعدت منصات الاطلاق المدفعي في المنطقة الشمالية ، وتم بناء بعض القرى الوهمية في المناطق المرشحة للإنزال الجوى وزادت أطوار المراقبة الرصد ليلاً خارج الجزيرة تحسباً لأى هجوم مفاجئ .

زيارة نميري

وفيما وصلت الأمور إلى نقطة التوتر ، حملت أجهزة الإغلام أنباء عن عزم نميري زياره مناطق الأنصار بالنيل الأبيض ، فزادت الأوضاع توتراً على ما كانت عليه ..

أولاً : رفض الإمام الزيارة .. مبرراً رفضه بأن الإنطار جاء بصورة استفزازية فلقد أعلن النظام عن الزيارة وحدد خط سيرها دون أن يتشاور في ذلك مع المعينين بالأمر . مع علمهم بردود الفعل التي قد تنتجم من مثل تلك الزيارة في مناطق الأنصار .

ثانياً : كانت كل جسور الثقة بين الإمام والنظام قد تدمرت حينها وذلك لقيام النظام باعتقال السيد الصادق المهدي ابن أخي الإمام الذي ذهب إلى الخرطوم مفاوضاً فتم اعتقاله رغم العهد الذي قطعه قادة النظام للسادة إسماعيل عبد الله الفاضل والفاتح عبدون والأمير نقد الله ، هذا إلى جانب تحالف النظام مع الشيوعيين ..

- ٤٧ -

ومع رفض الإمام للزيارة الذي أبداه علانية.. أعلن نميري إصراره وتمسكه بزيارة المنطقة.. فازدادت حدة التوتر، وانحبست الأنفاس ترقباً لما ستسفر عنه المجاورة فالصدام أصبح وشيكاً لا محالة ..

وفي هذا يقول الأستاذ سعد عباس توفيق ابن خاله الإمام المادى الذى عاش تلك اللحظات. «لقد أصبحنا نعيش مشهد الفرصة الأخيرة ليس أمامنا إلا عبور النهر لنقطع الأنفاس على روافى الضفة الأخرى. أو لتحطم على صخور المنحدر.. نتاثر أشلاء تنقش بمداد التاريخ حروف المأساة ..

لقد بات الخيار أمامنا جلياً إما أن نكون .. أو لا نكون . فلن نتوسد تابوت التاريخ في سكون وصمت .. تحركت الباخرة الملكة لميرى والوفد المرافق له ووصلت إلى الدويم ، وهناك واجه نميري أسوأ استقبال يمكن أن يلقاه حاكم .. الجماهير محتشدة تردد الشعارات المناوئة لنظامه والشاجة للتتدخل الأجنبي .. والمطالبة بتطبيق شرع الله .

وتكرر المشهد في أم جر ، وحتى يجد (نميري) ذريعة للانسحاب من المنطقة وعدم إكمال الزيارة تم إخراج مسرحية هجوم أحد الأنصار على نميري في محاولة لطعنه !!!

وانسحب نميري ووفده عائداً إلى الخرطوم من طريق كوسى وفي مساء نفس اليوم الأربعاء الخامس والعشرين من مارس ١٩٧٠ مرت الباخرة الملكة لميرى بمحاذة الجزيرة أبا ، فارتفعت الأصوات مرددة هتافات الأنصار وشعاراتهم ، وأطلقت عناصر من قوات الأنصار وأهالي الجزيرة نيران البنادق في الهواء .. لقد مرت باخرة نميري بمحاذة الجزيرة ، وفي مدى نيران أسلحتها ولو أرادوا تدميرها لفعلوا .. ولكن شخصية الإمام المؤمن المسلم كانت تمنعه من إثيان فعل مثل ذلك .. ولكن نميري عاد غاضباً وأصبحت الحرب أقرب من جبل الوريد» .

ويقول الأستاذ سعد:

صباح الخميس ٢٦ مارس ١٩٧٠ حوالي الساعة التاسعة والنصف صباحاً

- ٢٨ -

وأثناء وجودى بالقرب من (طيبة) التى تبعد حوالى ٢٨ كيلومتراً من وسط الجزيرة وعبر الجاسر .. تلقيت عبر جهاز اللاسلكى رسالة من نقطة الرصد خارج الجزيرة بأن قوة ضخمة فى طريقها إلى الجزيرة ..

في التاسعة و٤٥ دقيقة، بدأت القوة المدرعة في التقدم إلى داخل الجزيرة عبر الجاسر، وهو عبارة عن جسر تراى طوله حوالى ألف و٥٠٠ متر بعرض ١٠ أمتار .. ردم به الأنصار الفرع الشرقى من النهر لتسهيل دخول الزوار إلى الجزيرة ..

وكان الخطأ التكتيكي المميت الذى وقع فيه ضابط أركان القوة هو عدم إرساله لقوة استطلاع تسبق القوة الرئيسية منعاً لأى مفاجأة ..

تقلد الطابور المدرع عبر الجسر وقبل أن تعبره المدرعة الأولى إلى الأرض الفسيحة داخل الجزيرة فوجيء قائدتها بموانع من القصبان الحديدية، وجنوح الأشجار وكتل الأسمدة تمنعها من الاستمرار في مسيرتها فتوقفت المدرعة ومن خلفها بقية القوة .. وفي سرعة شبه أسطورية قام الأنصار بكسر الجسر خلف القوة لمنعها من التقهقر .. فوجدت نفسها محجوزة داخل (كسارة بندق) وفقاً للاصطلاح العسكري ، الموضع أمامها والجسر مكسور خلفها والمياه تحيط بها من الجانبيين ..

وهكذا نلاحظ أنه وفي لحظات فقدت القوة المدرعة كل قدرتها القتالية وتحولت إلى قبور ثابتة لمن هم بداخلها وخرج آلاف الأنصار وأحاطوا بالقوة المدرعة المكونة من ٤٢ مدرعة وبطارية مدفعية هاون تضم خمسة مدافع .. إضافة إلى قوة من سلاح المهندسين والإشارة ومستشفى ميدانى (*) ..

وفوجيء قائد القوة العميد (أ.ح) محمد أحمد أبو الذهب بهذا الموقف الخرج لقواته ومحاولة لإنقاذ أرواح جنوده .. أخرج أبو الذهب منديلاً أبيض من برج المدرعة ولوح به .. في هذه الأثناء وصل السيد خالد محمد إبراهيم واستطاع الوصول إلى مكان المدرعة الأمامية حيث تعرف على الرائد عثمان الأمين قائد حامية كوتى الذى عرفه بالعميد أبو الذهب .. فاستفسر خالد عن

(*) موافق على درب الزمان محجوب بدير محمد نور ص ٤١٦ - ٤١٩ .

- ٢٩ -

أسباب هذا التحرك المفاجيء .. فقال أبو الذهب بأنه مندوب الضباط الأحرار وجاء للباحث مع الإمام .. فسأله خالد عن مبررات حضوره على رأس كل هذه القوة ، في الوقت الذي ي يريد فيه مجرد مقابلة الإمام .. فرد أبو الذهب بأن تلك القوة ليست تابعة لميرى ، وأنه كان في (طوف) بتلك القوة .. ولقد كلفه زملاؤه مقابلة الإمام نيابة عنهم .

ورغم عدم اقتناع خالد بالمبررات التي ساقها العميد أبو الذهب .. إلا أنه أخذه والضباط عثمان الأمين مقابلة الإمام الهادى .. وعند البوابة الشمالية للسرى توافت عربة خالد فهبط منها ودخل السرای بعد أن كلف مجموعة من شباب الأنصار لحراسة العربية وحماية الضابطين اللذين بداخلها من أي اعتداء .. أما على الجاسر فلقد كان الموقف رهيباً ، آلاف الأنصار في حالة هياج واستنفار .. تم توزيع المدافع الخارقة للترويع حول المدرعات ..

حرارة الجو تشوی الوجه .. لفحات ساخنة من الهواء تزيد الأعصاب توترة .. جهود مضنية لمحاصرة التوتر .. ومنع النار من التوهج ثم الاشتعال .. فجأة .. هدر محرك إحدى المدرعات لقد حاولت على ما يليو أن تصبح وضعها هدرت معها آلاف الحناجر بالزئير وتأهبت للثوب كالمور على فريستها ولو لا لطف من الله .. وكانت أبواب جهنم قد فتحت في لحظات . الجنود داخل المدرعات في وضع لا يحسدون عليه .. درجة حرارة لا تحتمل .. وأصوات الأنصار بالخارج وصليل سيفهم وأسلحتهم يزيدتهم توترة على توتر كل شيء ينذر بركان وشيك ..

وبعد أن استمع الإمام الهادى إلى حديث أبو الذهب وحمله شروطه للتفاوض أصدر أمراً بحمايته وأفراد قوته حتى خروجهم من الجزيرة ، وكلف سعد عباس توفيق للإشراف على تلك المسؤولية ، وفي هذا يقول الأستاذ سعد نفسه :

- حضرت عربية (استيشن) لداخل السرای وركب فيها الضابطان أبو الذهب وعثمان الأمين « مارافق أبو الذهب » بينما ركب بجوارهما على الجانبين

- ٣٠ -

السيدان الفاضل على المهدى والطاهر الفاضل محمود لحمياتهما من أية محاولة اعتداء .

انطلقت العربية خلال شوارع شبه مقفرة فالجميع هناك على (الجاسر) يشاركون في محاصرة مدرعات وجنود القوة وفي لحظات وصلنا منطقة الجاسر وهنا أحسست ب مدى (الورطة) التي وقعنا فيها، أحاط الآلاف بالسيارة وتجمعوا حولها في محاولة لمنعها من الاستمرار في مسيرتها فما كان أمامي من سبيل غير الاستعانة بعد من شبابنا للتقدم أمام العربية في محاولة للوصول إلى أقرب مدرعة ومن ثم تسهيل مهمة دخول أبو الذهب وعثمان الأمين داخلها ليجتنيا خلف درعها القوى من أية حرابة طائشة أو سيف بtar .

وسرينا على هذا الحال أكثر من ٤٠ دقيقة، وعندما اقتربنا من أول مدرعة طلبت من العميد أبو الذهب القفز داخلها لكنه رد على طلبي بقذيفة أطلقها على رأسي بلا رحمة، إلنـى أريد الخروج بالعربـة حتى نهاية الجـاسـر، فأنا ذاهـب إلى كـوـسـتـى.. لقد حملـنـى الإمام الأمـانـة ووـعـدـهـ بـأنـ أـصـونـهـ .

إن الإمام يعرف رجالـهـ جـيـداـ.. يـعـرـفـ مـدىـ اـنـدـافـعـهـ عـنـ الغـضـبـ.. ولكن ما كان له أن يتخيل حـالـهـ في تلك اللـحظـاتـ.. لقد تجاوزـوا مرـحلـةـ الغـليـانـ بصـورـةـ عـجـيـبـةـ .

العربـةـ متـوقـفةـ بـجـوارـ المـدرـعـةـ الـأـولـىـ وـلاـ سـبـيلـ للـتـقـدـمـ، فالـجـاسـرـ مـسـلـودـ بـآـلـافـ الـأـنـصـارـ وـعـشـرـاتـ الـمـدـرـعـاتـ وـسـيـارـاتـ الغـزـاـةـ. أـمـاـ التـقـهـرـ إـلـىـ الـخـلـفـ فـهـوـ الـمـسـتـحـيلـ بـعـيـنـهـ.

لم يكن أمامـنـاـ منـ سـبـيلـ إـلـاـ اـنـظـارـ خـرـوجـ المـدـرـعـاتـ وـاحـدـةـ بـعـدـ الـأـخـرـىـ.. حتـىـ يـفـتحـ الطـرـيقـ.. وـتـجـدـ الـعـربـةـ مـنـفـذـاـ تـخـرـجـ مـنـهـ .

الـعـربـةـ عـاجـزـةـ عـنـ الـحـرـكـةـ.. وـالـثـانـىـ تـمـ بـطـيـئـةـ.. وـالـمـوـقـفـ يـزـدـادـ سـوءـاـ فـكـلـ لـحـظـةـ .

لـقـدـ فـقـدـ الـكـثـيرـ مـنـ رـجـالـنـاـ الـقـدـرـةـ عـلـىـ التـقـيـزـ بـيـنـ الـعـلـوـ وـالـصـدـيقـ.. هـاجـنـىـ أـحـدـهـ بـسـيـفـهـ وـلـوـ لـقـظـةـ الشـابـ حـولـ الـعـربـةـ لـقـضـىـ الـأـمـرـ .

- ٣١ -

أصابت حرية السيد الفاضل على المهدى في كفه عند اعترافه مسار
النصل الحاد لحماية الضابطين .

وعلى الجانب الآخر من العربية أصيب السيد الفاضل محمود في يده في
محاولة منه أيضاً لرد الطعن عن الضابطين .

لقد أثخنونا بالجراح ولم نمض غير دقائق قليلة على وقوفنا بينهم .. فكيف
الحال والمصير . وانتظرانا سيطول حتى يفتح الطريق؟

استعنت بمجموعة من حملة الرشاشات لتعزيز الحراسة حول العربية وياله
من موقف وجدنا أنفسنا فيه سلاحنا ضد رجالنا سالت دمائنا حماية لدمائهم
ضرينا أهلنا ورجالنا .. حماية لرجالهم» . ويواصل الأستاذ سعد حدیثه قائلاً:
بعد جهد كبير استطعنا السيطرة على الموقف المتفجر .. وعندما زاد الأمل
داخلنا بخروج الضابطين سليمين من الجزيرة ، وصل خبر من السرای بخروج
عربة محملة بالسلاح والذخيرة في طريقها إلينا . يقودها المهدى يسـ ومعه
الشهيد محمد صالح عمر ومهدى إبراهيم وعبدالمطلب بايكر .

لماذا هذا السلاح ولمن؟ أسئلة دارت سريعاً برأسى .. أمرت مجموعة من
حملة الرشاشات والقنابل اليلوية بالتقهقر سريعاً والتفرّك عند أحد المعابر التي
ستمر بها عربة السلاح ومنعها من الوصول إلى الجاسر بأية طريقة كانت .

لقد تصورت - ومعي العذر بأن قلوم العربية بهذا السلاح وداخلها هذه
المجموعة وفي هذا الوقت بالذات نذير شر مستطير ، فلقد كنا قد وزعنا كل ما
نحتاجه من سلاح على الواقع منذ وصول القوة الغازية أما الآن فقد صدر
الأمر بتؤمن خروج القوة . فلماذا هذا السلاح؟»

وهنا يروى الشيخ محمد صادق الكاروري تفاصيل ما حدث فقال
«لقد عارضنا بشدة إطلاق سراح الوفد ، لقتنا بأنهم مخادعون ، لكن الإمام أمر
بخروجهم في سلام ، بعد أن أمل شروطه على الوفد ، وجعل أبو الذهب يقسم
على الصحف بأن ينقل شروطه إلى نميري ، وأن لا يخون العهد . ولقد فقد
الشهيد محمد صالح عمر أعصابه للدرجة أنه أمسك الإمام من جلباه وهزه

- ٣٢ -

فائلاً: ما ممكِن الجماعة تخرج .. ولقد حاولت تهدئة الأخ الشهيد وقلت له أن الإمام قرر خروجهم وانتهى الأمر .. بعدها خرج محمد صالح ومهدى إبراهيم وعبدالمطلب !.

فإن قرائن الأحوال تؤكد أن خروج هذه المجموعة كان بهدف القبض على الضابطين أو مهاجمة القوة » .

ويستمر الأستاذ سعد في وصف ما حدث فيقول :

العربة متوقفة عند مدخل الجاسر الغربي وشباب الأنصار يجاهد لحماية الضابطين مستخدمين مؤخرات الرشاشات وكعب البنادق .

أخيراً . بعد ساعة مرت علينا كالدهر انفتح الطريق .. فانطلقت العربة وسط آلاف الأنصار الذين تعللت أصواتهم بالتكبير للله عز وجل مرددة نشيد الأنصار .

إلى الأمام إلى الإمام يا شباب الإمام
مضى كما مضى الجدود وسجلوا لنا الخلود
وحطموا كل القيود بالدين والباس الشديد
بسيفهم كشفوا الظلم

على مسافة حوالي ٥٠٠ متر من الجاسر أوقفت العربة ونزل الضابطان منها وقام السيد / الطاهر الفاضل محمود بتسلیمهما سلاحهما الشخصي الذي كان الأنصار قد جردوهما منه قبل دخولهما على السيد الإمام .

بعد ذلك عدت إلى الجزيرة سريعاً لنقل السيد الفاضل على المهدى إلى المستشفى نظراً لخطورة جرحه لأنه مصاب بمرض السكري . وبعد ذلك تقدمت للإمام بتقرير شامل عن موقف الأنصار و القوات المدرعة على الجاسر . واستفسرت الإمام عن سبب خروج العربة المحملة بالسلاح والذخيرة ، نفي

- ٣٣ -

علمه بالموضوع فلقد استغل الشهيد محمد صالح عمر ومهدى إبراهيم وعبد المطلب بابكر علاقتهم بالتدريب ومخازن السلاح فطلبا من الهادى يس مسئول حراسة مخزن الأسلحة إعطاءهم أسلحة لحاجة القوات الموجودة بالجاسر للأسلحة .

وتولى الهادى قيادة السيارة ، ولكن تقدرون فتضحك الأقدار . فبينما العربية منطلقة بأقصى سرعتها إذا بها تقلب عند أحد المنعطفات فتسقط حمولتها على الأرض .

كانت بقية المدرعات تتبعثر في الخروج من الجاسر ، بينما سقط بعضها في مياه النهر أثناء دورانها للخروج .

كل شيء يسير الآن بصورة هادئة ، اكتمل خروج كل المدرعات خارج الجسر ، عدا مدرعة واحدة ما زالت تجاهد بمساعدة عدد من الجنود للخروج من النهر .. فجأة سرت بين الأنصار معلومة تقول : أن الحكومة تعتمد إسقاط مدرعاتها في مياه النهر انتظاراً لcoming الليل ، لتعاود الهجوم على الجزيرة مرة أخرى . ولقد وجدت المعلومة صدى قوياً بين آلاف الأنصار الموجودين على الجاسر .. فلقد جددت عندهم الأمل في الانقضاض على الطريق .

توتر الجو ، وعادت نذر العاصفة لتشجع فوق سماء الجاسر مرة أخرى .. أخيراً ابتعدت قوة المدرعات عن أرض الجزيرة وابتعد معها شبح الحرب الذي خيم على سمائها طوال النهار .

بزغت شمس الجمعة ٢٧ مارس ١٩٧٠ على الجزيرة أبا ، كما فعلت ذلك ملايين المرات من قبل . ومرت الساعات الأولى من النهار بلا نذير شر أو خطير .

قرابة السابعة العاشرة صباحاً أبلغت نقطة المراقبة خارج الجزيرة عن ظاهرة غريبة لم تحدث من قبل ، فقد لاحظ المراقبون شيئاً غير عادي في حركة المورور من وإلى ربك وكوسنـى ، فمنذ الصباح لم تخرج منها أى عربة أو لوري كما أن جميع السيارات التي تدخلها لا تخرج مرة أخرى ، عائلة

- ٣٤ -

وكان التفسير الوحيد لهذه المعلومة أن هناك نشاطاً ما حول كوسى وربك على درجة عالية من الأهمية، ويطلب قدرأً كبيراً من السرية، مما يتطلب حظر الخروج من المدينة حتى لا تتسرب أنباء ما يجرى هناك.

فطلب من نقطة المراقبة في «حجر عسلاية» إرسال مجموعة استطلاع لمدينة ربك لاستجلاء الحقيقة، وصدرت التعليمات لقوات الأنصار بأداء صلاة الجمعة في مواقعها، وأدى الإمام صلاة الجمعة في الساحة المواجهة للسرى من الناحية الغربية ..

في الثانية وأربعين دقيقة وصلت إشارة من نقطة الرصد بحجر عسلاية تفيد بأن قوة مدرعة قد تحركت في اتجاه الجزيرة .

صدرت التعليمات للأنصار المرابطين شرق الجاسر والمكونة من ١٠ أفراد بالدخول إلى الجزيرة حتى لا ت تعرض للإبادة، ونقل احتياطي الدفاع الخارقة للروع والذخيرة إلى الموقع .

في الثالثة وخمس وعشرين دقيقة ظهرت أول مدرعة أمام الجاسر، بينما احتمت بقية القوة (٧ مدرعات) خلف تل يقع جنوب شرق الجاسر توافت المدرعة للحظة، ثم بدأت في إطلاق نيران مكثفة من مدفعتها على الجزيرة، فصدر على الفور أمر للمجاهدين بالاحتماء داخل الخنادق وخلف السواتر وعدم الرد على النيران، فلقد كانت المدرعة على مسافة تزيد على ألف و٥٠٠ متر أي خارج مدى نيراننا، هذا بجانب أن الرد على نيران المدرعة سيجعلها تكتشف الواقع، ومن ثم تدميرها .

تقدمت مجموعة من المجاهدين من الجاسر وسط أفراد قلائل وبدأوا في إطلاق النار على المدرعة من مدفع (البرن)، ورغم عدم جنوبي ذلك إلا أن الهدف كان في الأساس بإبعاد نظر المدرعة عن الكمين الذي نصب لها .

فلقد تم تجهيز وتوجيه مجموعتين من مجموعات البازوكا والـ(آر-في-جي) بالتقليم إلى شرق الجاسر حيث المدرعة لتدميرها .

وفي نفس اللحظة كانت هناك طائرتان من طراز (سكاي هوك) تحلقان

- ٣٥ -

على الجزيرة ، وتقصفانها ، فردت عليهما مدفعية المجاهدين بنيران كثيفة ..
وحلقت طائرتان فوق السرای ، وقامت بقصفها ، فتهاوت المنازل وأعمدة الكهرباء من حولها .

وبينا الكل يقف على الجاسر يتابع كل ذلك ، فجأة قام أحد الأنصار
ممتطياً صهوة جواده ، يسابق الريح بهجمة انتشارية على المدرعات .

لحظات مرت كالخيال ، فارس بحربة وسيف ومدرعة بمدفع رهيب ،
والفارس مندفع يهاجم جبل الحديد .

أمتار قليلة قطعها الفرس بفرسه ، ثم وصل إلى هدفه (الله أكبير تعالى ثم
الشهادة في سبيل الله) .

في هذه اللحظة وصلت مجموعة الـ (آر - إى - جي) إلى الضفة الشرقية
للنهر ، وأخذت مواقعها داخل الغابة في وضع الاستعداد لإطلاق النار ، ثم
انطلقت القذيفة الخارقة . وبدلاً من أن تدمر المدرعة دمرت استراحة خلف
المدرعة ، إنه ضعف التدريب على هذا السلاح الحديث .

وكان لابد أن تكتشف المدرعة موقع المقاتلين . وجهت مدفعها الثقيل .
ورشاشها المتوسط في اتجاه الغابة .

وفي هذه اللحظة - تماماً - تقدمت مجموعة البازوكا دون انتباه من
المدرعة ، وأصابتها إصابة مباشرة ، فسكنت حركتها وتوقفت عن إطلاق
النيران .. فتقدمت بقية القوة المدرعة ، مظلة وابلاً من نيران قذائفها على منازل
الجزيرة ومنطقة السرای ، بينما قام جنود سلاح المهندسين بسحب المدرعة
خارج أرض المعركة .

أصابت قوات المجاهدين إحدى الطائرتين ، فانطلقت شماليّاً تبعها سحابة
كثيفة من دخان أسود .

ازدادت المعركة ضراوة بعد إصابة المدرعة والطائرة ، فانضمت الطائرتان
اللتين كانتا تقصفان وسط الجزيرة والسرای إلى رفيقتهما الثالثة ليشارك الجميع

- ٣٦ -

في قصف جموع الأنصار بغرب الجاسر، بينما سرية كاملة من المدرعات تدك الأرض دكاً يدفعيتها الثقيلة.

موقع الأنصار ما تزال ساكنة تنفيذاً للأوامر، فلم تشارك في المعركة حتى الآن غير مجموعات بعينها.

لقد كان بعد المسافة بين الأنصار والقوات المدرعة، هو الحال الوحيد دون مشاركتهم بفاعلية في المعركة.

وكان الحل الوحيد هو التقدم والالتحام بالمدرعات.. ولكن كيف الوصول؟.

إن أي محاولة لعبور (الجاسر) انتصار مؤكد، فعبور مسافة ألف و٥٠٠ متر في خط مستقيم على جسر مكشوف وفي مواجهة ٧ مدرعات وثلاث طائرات نفاثة، هو المستحيل بعينه.

لم يكن الوصول يحتاج إلى شجاعة فهي في رجال الأنصار بل وفي نسائهم هبة من السماء.

لكن الوصول كان يحتاج إلى تدبير وتقدير صحيح.

وفجأة حدث ما قلب الموقف رأساً على عقب ظهرت مجموعات كبيرة من أنصار الله المقيمين على الضفة الشرقية من النهر مندفعين وسط أشجار الغابة، وانقضوا على المدرعات كالضوارى. عشرات الرجال يهاجمون المدرعات بالحراب والسيوف، يتسلقون أبراجها الفولاذية في محاولة يائسة للوصول لمن هم بداخليها.

والمدرعات من جانبها ترد الهجوم ببراءة متناهية تسحق الرجال تحت إطاراتها.

ارتفعت سحب الغبار والدخان واحتفى مشهد المأساة عن ناظرينا.

وكانت تلك فرصتنا الوحيدة للالتحام بالعدو، فلقد انشغلت المدرعات بالهجوم المفاجئ وحجبت الأتربة والدخان الرؤية.

- ٣٧ -

تحركت إثر ذلك مجموعة القنابل اليدوية والرشاشات المتوسطة بالاندفاع في سرعة لعبور الجاسر قبل أن تفيق المدرعات وتقضي على المهاجمين . ولم يشترك في الاندفاع مجموعات المدفع خارقة الدروع رغم الحاجة إليها نظراً لشلل أحركتها مما سيعرضها للدمار .

فيما وجهت كل القوات المتبقية غرب الجاسر نيرانها الكثيفة على الطائرات لحمايتهم أثناء العبور .

الbattle بين المدرعات والأسود المجاهدين على أشدّها .. وفي ثوانٍ ملعودة عبروا الجاسر والتحموا بالمدرعات .

أصوات الرصاص والانفجارات تصم الآذان . وعاصفة من تراب ودخان تعمى الأ بصار ، صرخ جرحى ، زفرات قتلى ، هدير محركات ، دعاء وتكبير .

فجأة انسحبت المدرعات . ومن خلفها جنود المورتر . ولكن لم تحاول مدرعة واحدة الانتظار لثوانٍ قليلة من أجل التقاط رفيق ، سلاح . فقد تضخت قلوبهم رعباً ، وتركوا رفاقهم لمصيرهم المحتوم .

مئات الطلقات تلاحق هؤلاء التعباس . بقايا من دم ولحם متوجّب بمحض الأرض هو كل ما تبقى من رجال كانوا منذ دقائق قليلة .. حياة وحيوية . غوراً وصلفاً .

قرص الشمس الفضي . يوشك على الاختفاء خلف الأفق البعيد ، تقهقرت المدرعات تاركة خلفها وحدة المورتر غنية للأنصار . بجانب ناقلة جنود ضخمة بسلاحيها .

تولى العم (تيراب) رئيس الميكانيكية بالجزيرة أبا قيادة الناقلة رغم إصابة إطاراتها بالنيران ، فسارت على الجاسر متقدمة نحو الجزيرة وهي محملة بصناديق ذخيرة ورشاشات متوسطة وخفيفة . وقنابل يدوية وأصابع ديناميت .

غريت شمس الجمعة ٢٧ مارس ١٩٧٠ وغابت معها أرواح عشرات الرجال والنساء والأطفال ومن قوات الأنصار المدرعة استشهد ثمانية ، وجرح

- ٣٨ -

واحد وعشرون ومن سكان الجزيرة وما جاورها استشهد ٧٣ وأكثر من مائة جريح .

وقتل ١١ من قوات الحكومة. انتهت معركة القوات وبدأنا معركة إنقاذ الجرحى .

الطيب الوحيد بمستشفى الجزيرة أبا خرج منها هارباً مع بداية القتال ناسياً المبادئ التي تحكم مهنته وقسم (أبوقراط). نسي كل شيء إلا نفسه وترك هؤلاء البوسae للألم والعناب ، والموت .

الظلام الحالك يغطي كل الجزيرة بعد أن تدمرت خطوط الكهرباء .. وحرائق هنا وهناك حيث سقطت القنابل وقذائف الدبابات .

شابة في عمر الزهور ملقاة على الأرض بعد أن انفصلت ذراعها عن جسمها وتمزقت أحشاؤها تمد يدها الباقية طالبة العون ، ولا معين غير الله .

لم يكن أمامنا من سبيل لإنقاذ هؤلاء الجرحى ، كانوا يتذوبون وكنا في عذاب أشد ، عذاب العاجز الذي وقف يشاهد أحب الناس وأعز الصحابة يصارعون الموت والألم أمام ناظريه .. ينادونه فلا يجيب .

قمينا بنقل الجرحى إلى المستشفى. التي لم يكن بها في تلك اللحظة غير مرضيin اثنين فقط نقلنا المصابين بإصابات طفيفة ، أما أصحاب الإصابات الخطيرة فقد احتسبناهم شهداء عند ربهم لا خوف عليهم ولا هم يحزنون .

بمساعدة من الأخ محمد محمد الصادق الكاروري قمت بتأمين إحدى قذائف الطائرات التي لم تنفجر ، ونقلناها خارج السرايا بعيداً عن المسakens .

الإمام المجاهد وسط رجاله يتفقد الدمار ، يواسى الجرحى ، لم يغادر السرای رغم تركيز القصف عليها من الطائرات والدبابات ، ورغم المحاولات التي بذلها الكثيرون لإقناعه بالخروج .

قمت بمساعدة الأخ الكاروري بتوزيع مجموعة مدافع المورتر على الواقع بعد تركيبها وشرح طريقة استخدامها لشباب الأنصار .

- ٣٩ -

تبادل النيران مستمر طوال تلك الليلة، وأطوف الحكومة. تنشر حول الجزيرة. وقام بعض من الرجال من موقع (طيبة) بقصص مطار ربك بمدافع الهاون لمنع الحكومة من تعزيز قواتها بالمنطقة.

انتهى اليوم الأول من المعركة بسقوط ٨٣ شهيداً، وأكثر من ١٢١ جريحاً وانسحبت مدرعات الحكومة بعيداً، وعاد الأنصار ينظمون صفوفهم، ويرعون جراحهم، ويدفون شهداءهم.

ثم برع فجر اليوم الثاني السبت ٢٨ مارس ١٩٧٠.

حوالى الساعية الثالثة فجراً، تحركت مجموعة قتالية مكونة من ٣٥ شاباً، مجهزة بخمسة مدافع خارقة للدروع و١٥ رشاشاً متوسطاً بالإضافة إلى مجموعة من الرشاشات الخفية والقنابل اليدوية خرجت حتى منطقة (حجر عسلية) وقامت المجموعة بالانتشار وسط الصخور، في وضع الاستعداد.

عند الرابعة وعشرين دقيقة.. وصلت سرية مدرعة مكونة من تسعة مدرعات وتوقفت في موضع تستطيع أن تطاله نيران المجاهدين الذين أطلقوا النار فوراً، وفي الحال أصابوا مدرعتين.

اندفعت إثر ذلك بقية القوة المدرعة والتقت حول موقعهم من الناحية الجنوبيّة الشرقية، وفتحت نيرانها كثيفة عليهم وبادلواها إطلاق النار بالمقابل، فأصبينا مدرعة أخرى.

في هذه الأثناء تقدمت من ربك مجموعة من الدبابات (ت ٥٥) وشاركت سرية المدرعات الهجوم على موقع الأنصار.

صدرت الأوامر للقوة بالانسحاب تجاه النهر حيث الغابة كثيفة والأعشاب عالية.. وقد فقدت حتى ذلك الوقت ثلاثة شهداء، وجرح سبعة.

استمرت المدرعات في مطاردهم أثناء الانسحاب، وهي تطلق نيراناً كثيفة على أي هدف متحرك.. الأمر الذي دفعهم إلى التفرق في مجموعات صغيرة منعاً للتطويق..

- ٤٠ -

وبعد جهد وصلوا إلى الجزيرة أبا، حيث لأثر للحرب إلا بقايا معركة الأمس ، وفي حوالي الساعة التاسعة صباحاً جاء أخي الأكبر الفاضل ومعه أربعة من المجاهدين الأنصار وطلب من سكان حى الجزيرة وسط وحى السوق مغادرة المنازل والتوجه إلى غابة مقابر سيدى الطيب في شمال الجزيرة التي تبعد حوالي ٤ كيلومترات إذ كان يجب علينا أن نتحرك في صف طويل من تلك المنطقة الواسعة المكشوفة ، فكان مشهد الأطفال وهم يركضون خلف أمهاهم كلما سمعوا صوت الطلقات النارية المتواصل يعقبه بين الفينة والأخرى دوى مدفعي هائل بخنا عن حماية من ذلك العلوان الوحشى الجرم . كان مشهداً يعبر عن صورة مأساوية موجعة تحكى ظلم وغدر أولئك الأشخاص الذين مات فيهم الإحساس بقيمة الإنسان .

وأثناء تلك المسيرة الحزينة حلقت فوق رؤوسنا طائرة ووزعت منشورات سقط معظمها خارج الجزيرة أبا، وعلمت فيما بعد أنها تحتوى على إنذار بإخلاء الجزيرة أبا بعد أن قاموا بدكها بالقناابل لمدة ٢٤ ساعة وسلوا كل منافذ الخروج لإكمال مجررتهم .

بعد وصولنا للغابة التي كانت تتوسطها المقابر مكتنها هناك يومين (ليلة السبت والأحد) عانينا فيما من العطش والجوع والخوف وقلة النوم من دوى المدافع والقناابل وكثافة البعض . وكنا نتوسد الرمل والقبور في الليل وكنا نستظل بالأشجار من لظى وحرارة الشمس وأعين قاذف الجحيم الذين لا يفرقون بين طفل وامرأة ، شيخ أو شاب .

والجدير بالذكر بأنه لو لا مجهودات إحدى النساء المخلصات وهى أثيوبيية كانت تقوم بمساعدة الوالدة في تربية الأولاد وكانت بمثابة أمها الثانية إذ عاشت معنا لمدة تزيد على ٢٥ عاماً، قامت تلك السيدة الفاضلة بالتأسلل إلى قلب الجزيرة أثناء القصف المحموم لتعود لنا محملة بالطعام الذى أطعم الجميع فكانت تلك الوجبة الوحيدة التى تناولناها فى تلك الفترة .

وكانت الوالدة رقية عبد الله الفاضل المهدى التى ظلت معنا في ذلك المكان الموحش تقطع خوفنا وهلعنا بدعوات خاشعة لله رب العالمين .

الأحد ٢٩ مارس :

بدأت مع إشراقة شمس ذلك اليوم تهال على الجزيرة قذائف ثقيلة من المدفعية المهاوتزر عيار (١٥٥) التي تفوق قذائف الدبابات حجماً.

إنها المدية التي قدمتها دولة عربية لم يرى لها الأنصار. مدفعية مية اشتراها الشعب العربي لضرب أعداء العرب والإسلام. وهاهي تهال على قرية عربية مسلمة لأنها رفضت القهوة والظلم.

بدأت المذبحة بصورتها الرهيبة. القصف العنيف المتبدل بين مدفعية المهاوتزر ١٥٥ ونفائس الميج ٢١ الأسرع من الصوت.

طارت الأشجار والأجساد وامتلأت الأرض بالدماء والأشلاء، دمرت منازل على ساكنيها وقتل العشرات من النساء والأطفال وسط الغابات التي احتموا بها من هذا الرعب الطائر المتتساقط من السماء بلا تفرقة ولا تمييز.

لقد كانت فرصة لتدريب الطيارين العرب على قصف المدن العربية استعداداً لقصف تل أبيب الصهيونية. ذلك فضلاً على إشراك طائرات الميج ٢١ الروسية بقيادة الخبراء والمدربين الروس وذلك لعدم توفر الطيارين السودانيين الذين يمكنهم قيادة هذا النوع من الطائرات وبذلك يكون قد ساهم في قصف الجزيرة أبا دولتان عربستان ودولة عظمى هي الاتحاد السوفيتي. وقد أثبت الطيارون كفاءة عالية فلم يسلم من قذائفهم امرأة أو طفل^(*).

أصدر الإمام أوامره بتجهيز قوة من شباب الأنصار لعبور النهر من الناحية الغربية ومهاجمة موقع الطويلة المواجهة للجزيرة من ناحية الغرب ثم التقدم بعد ذلك لهاجمة حامية كوسى من الناحية الغربية. تم تجهيز القوة ١٥٠ شاباً ووسائل العبور بقيادة الأنصارى/فضل المولى جباره.

لقد كانت العملية من الناحية التكتيكية جيدة وضرورية. فانتشار الأنصار خارج الجزيرة وهجومهم على الحامية الحكومية سوف يجعل هذه القوة تحول من الدفاع إلى الهجوم، كما أن الانتشار خارج الجزيرة سيفقد الطائرات قيمتها.

^(*) موافق على درب الزمان عقيد. م. نمير محمد نور (الجزء الثالث) ص ٤٢٤ ، ٤٢٥ .

- ٤٢ -

لكن فجأة تصل أوامر جديدة من السيد الإمام بوقف العبور . لماذا ؟؟ لقد خاف الإمام على السودان ، فالدم رغم كثرة مازال محصوراً في الجزيرة أبا . والأنصار رغم عنفهم مازالوا تحت سيطرته . لكن خروجهم وانتشارهم خارج الجزيرة قد يحول المعركة من معركة محدودة بين القوات الحكومية والأنصار إلى معركة شاملة وحرب أهلية قد لا تبقى ولا تذر .

لله الله يا إمام الأنصار . في أحلك ساعات حياتك والموت يترصدك من كل جانب والنار تحاصرك أينما سرت مازلت تفكير في هذا الوطن ، تفكير في إنقاذه ولا تفكير في إنقاذ نفسك ، تفكير في بقائه ولا تفكير في بقائك . إنه الإمام المجاهد المادي المهدى .

لقد كانت حياته مثلاً خالداً لل الوطنية والإخلاص والتضحية لأبعد الحدود في سبيل الإسلام والسودان . ضحى بكل ما يحرض عليه الناس في الحياة . ضحى بكل ما هو عزيز ، ضحى حتى بحياته وجعلها فداء لهذا الوطن .

اقرر الأخ الشهيد محمد صالح عمر القيام بهجوم على القوات في مخليج ربك . وافق الإمام على الاقتراح هذه المرة فالعملية موجهة ضد قوات الخليج ومحدودة الهدف وتحت قيادة محمد صالح عمر .

القصف العنيف بلا هادفة أو رحمة وبلا انقطاع . طائرات الميج النفاثة تطلق صواريخها ورشاشاتها على أي كائن حي ، إنساناً كان أو حيواناً .

ترك الطائرات الساحة لتبدأ مدفعية المهاوتزر ١٥٥ مم القيام بدورها في إبادة من نجا من الكائنات الحية التي تقطن هذه الجزيرة .

هذه آخر ساعات الدنيا . ورغم هذا الهول .. نجد الأنصار .. فرحين مستبشرين .. مرحباً بالموت زائراً عزيزاً جاء على شوق وانتظار . الشهادة في سبيل الله أمنية الأبطال وأمل المؤمنين وفي أشرف ساحة .. في سبيل الله .

الاثنين ٣٠ مارس ١٩٧٠ م :

جاءت توجيهات الإمام لجميع النساء والأطفال والشيوخ بالخروج من الجزيرة بأى وسيلة ممكنة ، وكنا ضمن ذلك الفوج الذى حرج فجر الاثنين ٣١/١٢/١٩٧٠ فى عربة لاندروفر مكشوفة امتلأت عن آخرها النساء

والأطفال، وكان معى بالمقاعد الأمامية للعربة الوالدة رقية والخالة قمر عبد الله وأختي الصغرى صديقة ومن الخلف شقيقاً وأختي نصر الدين وأختي مهدى وجموعة أخرى من النساء والأطفال امتلأت بهم العربة حتى فاضت، وكان خروجنا في حد ذاته معجزة، إذ أنها خرجنا عن طريق الحاسر الذى كان محروساً بقوات النظام الشيوعى. وهذا كنا نتوقع في أى لحظة أن يكتشف أمرنا وتوجه نحونا قذيفة غادرة تنهى حياتنا. لقد كانت لحظات حرجة ومن أصعب المواقف التى يمكن أن يتعرض لها الإنسان، ولكن شاءت إرادة المولى أن تمر تلك اللحظات بسلام، وتوجهت العربة التى كان يقودها ابن خال الإمام الهاشمى فرج الله خليل من هناك إلى قرية الشوال التى تقع شمال الجزيرة وهى أحد المراكز الرئيسية لتجمعات الأنصار وموطن والدة الإمام الهاشمى حيث وجدنا أعداداً كبيرة من الجنود على ظهر الدبابات فأوقفونا وتم التحقيق مع سائق العربة الذى أوضح لهم بأننا جئنا من كوسى وأنا ذاهبون إلى الخرطوم، فسمح لنا بالمرور بعد فترة عصيبة من القلق والانتظار والخوف، وتعرضنا للتقبيل أكثر من مرة على طول الطريق من الجزيرة إلى الخرطوم، وعند وصولنا مشارف مدينة القطينة التى تقع جنوب الخرطوم علمنا هناك أن حى ودنباوى قلعة الأنصار فى مدينة أم درمان ومقر إقامة الإمام الهاشمى تعرض لجحرة بشرية بشعة أخرى بعد أن سير الأنصار من هناك مظاهرة صامتة رفعوا فيها الشعارات التى تندد بضرب الجزيرة أبا فتقربنا الخبر بحزن دفين خاصة عندما علمنا بأن أطفال الأنصار الذين كان يتلوون القرآن فى حلوة مسجد الإمام عبد الرحمن بودنباوى والعجزة المقيمين هناك قد تعرضوا للضرب بقاذفات اللهب فحرقت أجسادهم وبقيت متفحمة فى أوضاع مختلفة، وأن المسجد لم يسلم أيضاً من قذائف الدبابات فدمرت مئذنته وحرقت مصاحفه وأن منزل الإمام ومنازل الأنصار قد كانت هدفاً لرصاص الانقلابيين، ورغم كل ذلك قررنا مواصلة المسير ووصل ركبنا الخزين إلى مدينة أم درمان مشخنين بالجراح، تختزن في ذاكرتنا صور موجعة ل موقف عصيبة تاركين خلفنا المجاهدين الأبطال يذودون عن قلعتهم ومبادئهم في مواجهة (الغدر) المليوى.

و عند وصولنا عشية الاثنين ٣١ / ٣ / ١٩٧٠ وجدنا السكون يهيمن على حي ودنباوى وانخفى المارة من الطرقات ما عدا بعض الجنود الذين انتشروا على طول الطريق يحملون أسلحتهم النارية وقد بدا عليهم الاضطراب الواضح الناجم عن تلك المجاوزر البشرية البشعة التي أقدموا عليها في أصيل ليل دامس رتعت فيه شياطين نحسهم لتحيل تلك الديار الآمنة إلى حالة من الفوضى والحراب . وب مجرد دخولنا منزل الإمام الشهيد بودنباوى داهتنا قوة من الجنود تجاوزت ال ١٠٠ جندى وهم مدججون بأحدث الأسلحة ليقتحموا المنزل من كل منافذه الداخلية في مواجهة نساء وأطفال ، فصاح أحدهم « ثابت ارفعوا أيديكم » ففعلنا بدهشة وهلع حقيقى ثم تقدمهم ضابط برتبة مقدم يطلب من الوالدة السيدة رقية أن تذهب معه ليتم استجوابها فرفضنا نحن الصغار أن نترك الوالدة وحدها فبكينا وأصررنا أن نرافقها فوافق الضابط مكرهاً بعد أن بدت على حياء علامة التردد وسمح لنا بمرافقتها فأخذنا إلى العربة وقد صوبت الرشاشات والبنادق إلى ظهورنا ورؤوسنا ، ثم قاموا بجولة بنا بالعربة داخل مدينة أم درمان يمطروا الوالدة بعد من الأسئلة انصبت كلها حول مكان الشهيد فأجابته الوالدة بأنها لا تعلم ، وكرروا السؤال بجلافة وغلظة وتهديد فأجابت الوالدة بالحوارب نفسه ولما يتسوا من تلك المحاولات المتكررة لم يكن أمامهم غير إرجاعنا من حيث جئنا إلى ديارنا في ودنباوى حيث وجدنا بعض أفراد الأسرة يتظروننا في قلق شديد بعد أن تسرب نباء اعتقالنا .

كنا في تلك اللحظات نعاني من التعب والإرهاق الشديدين إضافة إلى حالة التوتر التي قد تكون نتيجتها إزهاق أرواحنا ببساطة شديدة إذ لم نذق طعم الأكل غير مرة واحدة خلال تلك الأيام العصيبة وكنا إبانها نفترش الترى في مقابر الجزيرة أبا ، وهذا كانت أنشوئ إلى فراش آمن يضممني أنا ابن العاشرة مع أسرتي بعد تلك الأحداث ، ولكننا فوجئنا بأن المنزل قد أصبح خراباً بعد تعرضه لتفتيش دقيق استخدمت فيه كل الوسائل ومزق الجنود حتى الفراش وبالطبع لم تكن تلك الصورة القاتمة تحدث شيئاً في نفسى مقارنة بما شاهدناه في الجزيرة أبا .

- ٤٥ -

الاثنين ٣٠ مارس ٢٠٧٠ :

نعود مرة أخرى للجزيرة أبا حيث عمليات الإبادة مستمرة وبلا انقطاع القصف ينهم على البلد بلا رحمة أو شفقة لقد تحولت المعركة إلى إبادة لجماعة الأنصار. فقد رأى النظام وأذناه في الداخل والخارج أن لا سبيل لبقاءهم ما بقى أنصاراً على هذه الأرض يسعى .

لم يكتف النظام بطائرات الميغ الصدية ولا بمدفعية الهاوتزر الثقيلة بل حرك منذ صباح هذا اليوم مجموعة من دبابات ٥٥ الثقيلة للمشاركة في تدمير ما باقي من أحياء بالجزيرة أبا بمدفعيتها عيار ١٠٠ مم .

تم عقد اجتماع عصر هذا اليوم بمنزل السيد / بشري السيد حامد وأوضح فيه للسيد الإمام وضع قوات الأنصار وثباتهم لهذا الهول واستعدادهم للصمود أيام أخرى . قدم بعدها العمة شرف الدين عمة الجزيرة تقريره عن الموقف بين الأهالي ومدى الدمار الذي حاق بهم وتزايد أعداد القتلى والجرحى بينهم رغم احتفائهم بالغابات ..

عقد السيد الإمام اجتماعاً بمجلس شورى الأنصار وشرح لهم تطورات الموقف .

في نهاية الأمر أجمع مجلس الشورى على ضرورة هجرة الإمام المادى وتسلیم الجزیرة حقناً للدماء - والإعداد لمعركة أخرى تكون حاسمة ضد أعداء الله والدين ..

وفي حوالي الساعة الواحدة فجراً غادر السيد الإمام الجزیرة أبا برفقه :

- (١) العمة عمر مصطفى حسن عمة الشوال وحال الإمام . (٢) محمد أحمد مصطفى حسن حال الإمام . (٣) الفاضل المادى المهدى نجل الإمام .
- (٤) عباس أحمد عمر جد الإمام . (٥) سيف الدين النافى ملازم الإمام .
- (٦) محمد على يونس ملازم الإمام . (٧) محمد محمد الصادق الكارورى آخر مسلم . (٨) عز الدين الشيخ فضل أخ مسلم . (٩) عبد المطلب بابكر خوجلى

- ٤٦ -

أخ مسلم. (١٠) سائق عربة النقل التي أقتلت السيد الإمام ورفاقه إلى حدود الغابة ثم عاد ثانية بالعربة.

لقد اتفق الجميع على أن خسارة المعركة بالجزيرة أبا لا تعني نهاية الحرب ضد أعداء الدين فالمعارك مستمرة والأنصار في حاجة ماسة لوجود الإمام يقودها في معاركهم ولا بديل لقيادته.

اجتمع بالإمام كبار رجال الأنصار فرادى ومجتمعين وكل منهم يناشد الإمام بالمحافظة على حياته إنقاذاً للأنصار.

اجتمع به الشيخ الكارورى وقال له: (هل من المنطق أن ننتظر القبض علينا هنا؟ أم الواجب علينا الخروج للاستمرار في المعركة من الخارج؟).

اجتمع به العدة عمر مصطفى حسن والخال محمد أحمد مصطفى وذكرا له هجرة الرسول عليه الصلاة والسلام وأصحابه عليهم رضوان الله للمحبشة.

اتفق الجميع ولم يكن أمام السيد الإمام إلا الرضوخ لرأى الجميع.
فكان المиграة من الجزيرة أبا ..

عملية الهجوم على الخليج ببريك

وتقرر تمهيداً لتسهيل عملية خروج الإمام الهاדי ومرافقيه من الجزيرة أبا القيام بعملية عسكرية محدودة كان الهدف منها هو أن تنشغل تلك القوات المرابطة بالجاسر بتلك المعركة الجانبية حتى تيسر للإمام ومن معه الخروج .. وهكذا تحرك المحايد محمد صالح عمر مساء الأحد ٢٩ مارس وحسب المتع في مثل هذه العمليات فقد تركت له حرية التصرف حسب الظروف التي تواجهه.

قرر قائد القوة عدم القيام بهجوم مباشر على الهدف، لذلك فبمجرد عبوره الجاسر غيرت القوة اتجاهها عكس طريق الخليج للتمويه، اتجهت القوة شمالاً تجاه الخرطوم ولكن بعد مدة غيرت اتجاهها شرقاً حتى وصلت إلى قرية قفا بالجبال البيض، وهناك عسكرت القوة في الجبال المحيطة بها وتحرك محمد صالح عمر للاستطلاع ومحاولة نسف خطوط السكك الحديدية لمنع الإمدادات من الوصول للحامية.

- ٤٧ -

عند مساء يوم الاثنين ٣٠ مارس تحركت القوة تجاه الخليج فوصلته بعد منتصف الليل بقليل، قام الشهيد محمد صالح عمر بتوزيع القوة لمجموعتين ٢٢ كانت مهمتهم مهاجمة المطار في ربك بينما قامت باقى القوة ٤٣ شاباً بالانتشار حول الخليج والهجوم عليه.

وفي بداية اليوم التالي ومع ظهور الخيط الأبيض في السماء.. أصبحت القوة المهاجمة هدفاً واضحاً للمدرعات والدبابات الثقيلة.. وبدأت المذبحة..

انهمرت القذائف من المدرعات والدبابات ومن كل أفراد الحامية الموجودة بالخليج على الشباب. تطايرت المنازل التي احتموا بها واشتعلت فيها النيران، ورغم هذا الهول فقد صمموا وتقديموا، استمرت المعركة الشرسة حتى حوالي الساعة ١٢,٣٠ ظهراً كان قد قضى على معظم المهاجمين.

كانت القوات تتخذ من الخليج ساتراً لها أثناء المعركة لذلك فبمجرد إطلاق النيران من الشباب اشتعلت النيران في كميات الأقطان التي كانت موجودة به فدمرته تدميراً كبيراً رغم محاولات قوات مكافحة النيران ولمدة ٤ أيام متالية بعد المعركة.

أصابت قذيفة دبابة المنزل الذي كان يختفي به الشهيد محمد صالح عمر فاشتعلت فيه النيران واحترق جثته فلم تعرف عليه قوات الحكومة وأصدرت نشرات للقبض عليه.

لم تتوفر المعلومات الكافية عن خسائر القوات الحكومية لكن بعض المشاهدين للمعركة قلروا خسائر القوات الحكومية بـ ١٥ بين قتيل وجريح.

باتهاء عملية الخليج انتهت معركة النظام ضد الأنصار بالجزيرة أياً.. استشهد في عملية الهجوم على الخليج ٤٦ من شباب الأنصار، وبذلك وصل عدد شهداء المعركة من قوات الأنصار ٤٧٨ وقدر عدد الجرحى بحوالى ١٢٠٠ جريح.

عملية تسليم الجزيرة أبا :

في صباح يوم الثلاثاء الموافق ٣١ مارس ٢٠١٥ ذهب بعض قيادات الأنصار لمقابلة قائد القوة الحكومية الذي كان يتخذ من منطقة حجر عسلاية مقراً لقيادة العمليات ضد الجزيرة أبا. قابليهم الرائد أبو القاسم محمد إبراهيم والعميد محمد أحمد أبو الذهب طلبوها منها وقف القصف على الجزيرة وأبلغوها استعداد الجزيرة للتسليم. طلب أبو القاسم حضور شخص معروف من الجزيرة للتفاوض معه. عاد الوفد للجزيرة وأبلغ السيد خالد فتحرك خالد لمنطقة حجر عسلاية حيث قابل أبو الذهب وأبو القاسم، طلبا منه تسليم الجزيرة في خلال ساعتين وتسليم الإمام، رد خالد بأن المدة غير كافية بالنسبة لمساحة الجزيرة وعدم وجود عربات للحركة داخل الجزيرة بعد تدمير القصف لها. أصر أبو القاسم على الساعتين، عاد خالد للجزيرة وبدأ في محاولة إقناع الأنصار بالتسليم.. قابله الأنصار بمعارضة شديدة ووصلت للاعتداء عليه من بعضهم، بذلك لجنة شئون الأنصار جهوداً مضنية لإقناع الأنصار بالتسليم وافقت أعداد من الأنصار على وقف القتال بعد أن أبلغتهم اللجنة بأن هذه هي تعليمات السيد الإمام قبل مغادرته للجزيرة. اضطرر خالد للذهاب مرة أخرى لحجر عسلاية لإعطائه مهلة جديدة لأنه لم يستطع خلال الساعتين المرور على كل المواقع ولأن إقناع الأنصار بالتسليم يحتاج إلى وقت، أعطوه مهلة أخرى ساعتين قامت لجنة شئون الأنصار بتجميع الأسلحة عند منطقة الجاسر كما طلب أبو القاسم، أخفى معظم المقاتلين أسلحتهم ورفضوا تسليمها كما غادر البعض منهم الجزيرة بسلاحه ورفض تسليميه، استمر خالد واللجنة في الإقناع وجمع السلاح طوال يوم الثلاثاء وليلة الأربعاء وقد استطاعوا خلالها إقناع المقاتلين بوقف القتال.

عند ظهر يوم الأربعاء الموافق ١ أبريل ٢٠١٥ دخلت قوة من المدرعات للجزيرة أبا، تجمع أهالي الجزيرة خارج القرية حسب تعليمات أبو القاسم محمد إبراهيم، عبرت قوة المدرعات للجاسر وب مجرد عبورها قامت بفتح النار على الأهالي المتجمعين في الأرض الفضاء عند مدخل البلدة. لقد كانت مذبحه قمة

وغريبة لاتمّت إلى أبسط قواعد الإنسانية بشيء، فقد أعمى بلا حدود، دبابات تطلق النار من مدافعها ورشاشاتها على نساء وأطفال عزل وبلا جريرة أو ذنب إلا أنهم أنصار يؤمنون بالله ورسوله. كانت المذبح رهيبة استشهد فيها ما لا يقل عن ٥٠ من الأهالى العزل من السلاح خرجوا حسب أوامر أبو القاسم محمد إبراهيم «سفاح أبا» الذى فقد أبسط قواعد الشهامة والانضباط العسكري الذى عرف به الجندي السودانى.

لقد قرر السيد الإمام تسليم الجزيرة حقناً لدماء هؤلاء المؤسأء فيها هو السفاح المجرم يهدى دمهما بلا سبب أو مبرر، قامت القوات المرافقة للدبابات بعمل حفرة في نفس المنطقة بواسطة الحفارات والجرافات دفت فيه هذا العدد من البشر ولم تفرق بين جريح أو قتيل بل دفت الجميع ومنهم من كان حياً يرتفع أينه من ألم الجراح. لكم الله يا أنصار الله أتباع المهدى لقد حاول الإمام حقن دمائكم الزكية بالتسليم لكنها هو التسلیم كان وبالاً عليكم ليت الإمام قرأ صفحة الغيب لكان قد أمر بالاستمرار في القتال فقد كان القتال رحمة بكم وبه.

أحداث الكرمك

وتحرك ركب الإمام فجر الثلاثاء حسب ما رواه ابن الإمام المرحوم الفاضل الذى كان مرافقاً في تلك الرحلة، لقد اختار الركب طريقاً غير مطروق من الجزيرة أبا إلى مدينة الكرمك التي تقع على الحدود الأثيوبيّة - السودانية فكان المسار آمناً طوال الطريق حتى وصلوا بالقرب من قرية أونسه حوالي الساعة الواحدة والنصف ظهراً فشاهدتهم أحد المواطنين ويدعى أبو بكر عبده فرح وهو أحد عمال الطرق الذين يعملون بتلك المناطق فحيوه بتحية الإسلام ورد بمثلها ثم سأله عن أقرب منطقة يمكن أن يجدوا فيها ماء إذ أصابهم الظماء ونفد زادهم ومؤاهم، فأرشدهم ذلك المواطن إلى قرية أونسه التي كانت تبعد حوالي ميلين من ذلك الموقع فتوقفوا تحت إحدى الأشجار الظلليلة وجلسوا هناك في تلك المنطقة الوعرة وصرفوا العربة التي كانت معهم لأن ما تبقى من مشوار حتى الحدود الأثيوبيّة يمكن قطعه مشياً على الأقدام وخاصة أن تلك

- ٥٠ -

المنطقة الوعرة لا يمكن استخدام العربية فيها، فجلس الإمام ومعه خاله محمد محمد مصطفى والعمدة عمر مصطفى وابنه الفاضل ومرافقه سيف الدين الناجي مستظلين بالأشجار الكثيفة في تلك المنطقة الوعرة وتحركت البقية الشيخ محمد صادق كاروري وعبد المطلب بابكر خوجلي وعباس أحمد عمر جد الإمام الهادي في اتجاه القرية لجلب المياه.

نعود للمواطن الذي كان قد شاهد العربة التي تقل الإمام الهادي ومرافقه الذي يبدو أنه لم يعرف على شخصية الإمام الهادي، ورغم ذلك فقد قام بإبلاغ السلطات الإدارية في مركز الكرمك عن وجود بعض ما أسماهم بهم بي السلاح وذلك لاشتهر المنطقة التي شاهدهم فيها بتهريب السلاح من أثيوبيا للسودان، الأمر الذي حدا بقوة الشرطة الموجودة في تلك المنطقة والتي كان على رأسها الملازم مختار طلحة متابعة نشاط التهريب بالتحرك الفوري نحو المكان الذي حلده المواطن، فوصلت تلك القوة إلى موقع الإمام الهادي والمجموعة التي كانت معه والذين كانوا قد انتهوا لتوهم من صلاة الظهر بعد أن استراحوا قليلاً من عناء السفر ليقوموا بمحاصرتهم ومن ثم تفتيشهم إلا أنهم حتى تلك اللحظة لم يتمكنوا من معرفة الإمام الذي كان يضع شالاً على وجهه، وأثناء تفتيش الإمام ومجموعته قام ابنه المرحوم الفاضل بمقاومة عنيفة أدت إلى تدخل الإمام لحماية ابنه وفض النزاع إلا أن أحد الجنود بادر بإطلاق طلقة من بندقيته أصابت الإمام في فخذه اليمنى فجلس أرضاً بعد الطلق الناري فصاح ابنه قائلاً بحدة (من ضربتموه هو الإمام الهادي) ليقع الجميع في حالة اندهاش وذعر حقيقي وهم يشاهدون الإمام وقد امتلاه جلبابه بالدماء على الرغم من التماسك الواضح الذي بدا على وجهه. فتساءل مرافقو الإمام بازدحام واضح عن كيفية التصرف والإسراع بإسعاف الإمام، فكان تصرف قائد المجموعة غريباً، إذ قام بعزل الإمام من مجموعة إلا من خاله محمد أحمد مصطفى ومرافقه سيف الدين الناجي ووضعهم تحت حراسة خمسة من رجاله المسلمين أما البقية فقد اقتادهم معه بعد أن قيدهم بالجنازير إلى مدينة الكرمك بخوجة لإرساله عربة أكبر لكي تقل الإمام، أما البقية وأقصد الشيخ محمد صادق كاروري والجند عباس أحمد عمر وعبد المطلب بابكر خوجلي كان فقد ألقى القبض

عليهم بواسطة مجموعة من العسكر المتحركين في الموقع نفسه لحماية القوة الأساسية. وأثناء عودة الملازم مختار طلحة وقوته والأسرى إلى الكرمك التقاوا بضابط المجلس محمد حسين بامسيكه الذي كان أيضاً على رأس قوة خرجت في أعقاب القوة الأولى، فأوضح الملازم مختار طلحة حقيقة الموقف لضابط المجلس الذي ييلو أنه قد ارتاح لما حدث فأصر على مواصلة السير حتى يقف بنفسه على حقيقة الأمر بعد أن قام بتوجيه الملازم بإرسال برقية إلى الدمازين حامية النيل الأزرق ومن ثم إلى الخرطوم لإطلاع المسؤولين على الموقف. وفور وصول ضابط المجلس وجد روح الإمام الشهيد قد فاضت إلى بارئها بينما كان مرافقه سيف الدين الناجي واضعاً رأس الإمام الشهيد على فخذيه وهو جالس على الأرض يرتل القرآن أيضاً. طلب ضابط المجلس بغلظة واستفزاز واصحين من سيف الدين الناجي أن يكشف وجه الإمام الشهيد، وأن يقوم بوضع رأس الإمام الشهيد على الأرض فواصل سيف الدين ترتيله من دون أن يكتثر بما قاله ذلك الرجل مما كان من الأول إلا أن ركله برجله على رأسه فما كان من سيف الدين الناجي إلا أن رد بصوت عالي الله أكبر والله الحمد ثلاثاً فرد عليه ضابط المجلس بثلاث طلقات نارية من مسدسه في صدره ليلقى به أرضًا بجوار الإمام الشهيد وأصلر تعليماته إلى أحد الجنود بأن يخلص عليه فرفض الجندي ذلك ثم وجه جندياً آخر فتفذ الأخير التعليمات وأرسل في غدر طلقة إلى قلب ذلك المجاهد فانقضت يده ثم انفجارت لفظ أنفاسه إلى جانب إمامه الشهيد الذي بقي إلى جواره في أحلك الظروف وأصعبها كدلالة قوية على تمسكه بالعقيدة السمححة والبيعة الحقة .

جاء مجلس قيادة الثورة بالخرطوم على البرقية التي كان قد أرسلها الملازم طلحة مقتضباً خلاصته الاستعجال بالقضاء على الإمام ومن معه خصوصاً وأن القيادة لم تكن تعلم في تلك اللحظة بخبر استشهاد الإمام ومرافقه، ونتيجة لذلك تحركت القوة من حامية الدمازين برئاسة الملازم تيراب الغالي متوجهة من الدمازين صوب الموقع الذي كان يوجد فيه الإمام لتنفيذ تعليمات القيادة بالقضاء على الإمام ومن معه، إلا أنه وفي منتصف الطريق التقوا بالقوة التي

كانت تصاحب ضابط المجلس ومعها جثثان الإمام ومرافقه سيف الدين الناجي والحال محمد أحمد مصطفى الذى كان لا يزال على قيد الحياة ، الأمر الذى أدى لقتله بأسلوب وحشى اتسم بكثير من القسوة والخشنة معتقدين أنهم بذلك يقضون على الشخص الوحيد الذى رأى بأم عينه استشهاد الإمام ومرافقه ليقوم بعد ذلك بburial خال الإمام الشهيد ومرافقه في قبر واحد والإمام الشهيد في قبر وحده في منتصف الطريق بين الدمازين والكرمل وفي مكان وعر يسمى خور الدور متوجهين بذلك أنهم بفضل ما اقترفوا من جرم في حق ذلك الكيان بقتل إمامهم الشهيد قد يتنسى لهم إضعاف وتلويث ذلك التراث الإسلامي الذي قام بإيراسمه الإمام محمد حمد المهدى حينما خرج يقاتل ومجاهدوه تلك القوى الاستعمارية الغاشمة بشهادة أن لا إله إلا الله ليقيم دولة إسلامية على أنقاض تلك الحفنة الحاقدة من أعداء الله .

لقد استبسلا الإمام الشهيد المهدى وقاتل في ثبات وشجاعة فأقبل ولم يدبر حتى لاق ربه راضياً مرضياً في سبيل ما يؤمن به من عقيدة ومبادئ إسلامية وعربية في مواجهة قوى الشرك والإلحاد التي تسلطت في غفلة من الزمن على أرضنا وديارنا الطيبة متوجهة أنها من خلال ذلك تستطيع أن تقضي على التراث والعقيدة .

كيف واجهنا الحياة بعد مقتل الإمام

لم تكن حياتنا حياة سادة أو أولاد سادة مرفهين مدللين كما يعتقد البعض ، أو أن نكون عيشنا عيشة سهلة رغدة من كنوز مدفونة ، ورشناها أباً عن جد من عرق وكد المهاجرين من الأنصار للجزيرة «أبا» كما يخلو لبعضهم اهتماما . وفي الحقيقة ليس هذا ولا ذاك ، فقد واجهتنا صعوبات حقيقة في تأمين المأكل والشرب ، شأننا شأن أي أسرة سودانية فقدت واليها . وقد ازداد الحال سوءاً بمصادرة نظام ما يتوصل كل ممتلكات الأسرة حتى الملابس والأشياء الخاصة التي تخص والدنا الإمام الماهدي .

كنا ساعتها دون السن القانونية ولم نكن تأهلنا التأهيل العلمي المناسب لكسب العيش الكريم ، وبتنفيذ المصادرة على كل ما يملك والدنا الإمام ، أصبحنا نعاني ضيقاً في كل شيء . وبدأنا وقها بقليل وترشيد الإنفاق العائلي فيما عدا الضروري منه . وكنا نصبو لتأهيل أنفسنا علمياً ، شأننا شأن أي مواطن طموح لتأمين وترتيب عيش كريم . وهنا بدأت تراودنّ نفسي آمال وطموحات في اختيار الدراسة المهنية المناسبة التي تمكنت من ذلك حين تخرجى من الجامعة . فاختارت دراسة الطب . كانت تراودني تلك الأفكار وأنا في العاشرة من العمر . ولكن أين أنا من الجامعة؟ وأين أنا من الدراسة المتواصلة والنبوغ لنيل ذلك الهدف . وظننت ساعتها أنها أحلام يقظة سرعان ما تختفي بتغير ظروف ، ولكن وجدت نفسي في المسار ، على بركة الله واصلت المشوار وكان لي ما أردت .

كان موقف الأنصار معنا كريماً طوال فترة المخنة ، فقد ظل جييعهم بين الحين والآخر يأتون لزيارتـنا بالمنزل في ودنوباوى بأم درمان ويـسألون عن أحوالـنا وأحوالـ الإمام الغائب ، ويـترـكون لنا عند نهاية الـزيارة ما تـيسـر من شـوالـات النـدرة السودانية مما سـاعـدـنا كـثـيرـاً على مـواجهـة تلك الأيام الصـعبـة ، وأذـكر أـنـي قـلت لأـحـدهـم : لماذا كل هـذا العنـاء والتـعب؟ فـنظرـ إلىـيـ فيـ عـطفـ شـدـيدـ قائلاً : «ـنـحنـ نـهـودـ بـالـرـوحـ نـاهـيـكـ عـنـ زـادـ الدـنـيـاـ الزـائـلـ هـذـاـ». وهـكـذاـ كانـ شـعـورـ عـامـتهمـ . كانـ إـعلامـ ماـيوـ شـرـاسـاـ شـرـاسـةـ الحـكـمـ . فقدـ ظـلـ ذـلـكـ إـلـاعـامـ ، وـقـبـلـ بدـايـةـ

معارك الجزيرة أبا، يوجه سموه المحمودة ضدنا وضد كيان الأنصار عامة، ونفذت أحجزته الإعلامية المقرؤة والمسموعة والمنظورة حملة إعلامية سخيفة ومن صنع خيال سقيم، ملأته بالأكاذيب الملفقة والأطروحات والاتهامات الباطلة عن أسرتنا وعن والدى الإمام، اتهمته فيها بالدجل والغش والعيش على حساب البسطاء والسدج المخدوعين وتضليلهم ... إلى آخر تلك التعبيرات الافتراضية التي كان ينبع بها اليسار ومن واه. كان هدف الإعلام وقتها تضليل المواطن والرأى العام السوداني لتبرير ما فعلوه بكيان الأنصار في الجزيرة أبا وودونباوى، وقد تحملنا كل ذلك بصر وجلد شديدين .

باتت لي واضحة، آثار تلك الحملة الإعلامية الشرسة حيناً التحقت بعد رجوعنا من الجزيرة أبا بمدرسة الركابية الابتدائية في أم درمان في شهر آب (أغسطس) ١٩٧٠ . فقد واجهت جواً غير مريح وعدائياً أحياناً من بعض زملائي التلاميذ في تلك المدرسة ، كنت أسمع لحظتها بعضهم يردد افتراءات الإعلام الكاذبة ضدنا وكأنها حقيقة ثابتة ، تارة في مواجهة وجهها لوجه بيني وبينهم ، وأخرى من وراء ظهرى بالهمز واللمز . وليس هذا فحسب ، بل إن بعضهم كان يتجرأ في توجيهه بعض الأسئلة المحرجة لي . وحينما أرد على تلك الأسئلة ببرود تام لحظ انطباعات الدهشة والذهول في وجوه بعضهم ، بينما يتبادل بعضهم في تحد سافر بتصديق ما قالته أحجزة الإعلام . وليت الأمر وقف عند أقوانى التلاميذ ، حيث كان بعض المدرسين ، الذين لا يخافون الله ولا يخشون لقاءه ، وهم قلة عفا الله عنهم ، يبادرون بالتلتميع الموجع أثناء الحصص الدراسية بسرد قصص وحكايات من شأنها أن تدعم مزاعم الإعلام المشورة ضدنا ، ويصل الإحراج غايته بالتفافات من طلاب الفصل نحوى بابتسامات حبيبة تأكيداً لكلام أولئك المعلمين . ولكن الحمد لله واصلت دراستي في اجتياز بالغ وتفوق مرموق . وساعدنى في تحمل تلك المخنة ما وجدته من عطف وحنان وتشجيع من والدى وأنجوانى وابتسامات رجالات الأنصار نحوى بالعاطف والرضا حينما يروننى أحمل شنطة كتبى على كتفى وأسرع الخطى نحو المدرسة . أضف إلى هنا أن عدداً من زملائي التلاميذ وقف معى في تراكم قوى ضد كل الكاذبين مما كان له الأثر الواضح في تجاوز تلك المرحلة بنجاح .

لقد شاهدت سنوات دراستى من المرحلة الابتدائية ١٩٧٠ حتى تخرجى من كلية الطب بجامعة الجزيرة ١٩٨٦ عدداً من الأحداث السياسية فى مسيرة .

حكم مايو، بدأت بانقلاب هاشم العطا (الأحمر) في ١٩٧١، ثم أحداث وتظاهرات الطلاب في شعبان ١٩٧٣، ثم انقلاب المقدم حسن حسين عثمان في أيلول (سبتمبر) ١٩٧٥، وحركة ٢ تموز (يوليو) ١٩٧٦ بقيادة العميد الشهيد محمد نور سعد وشقيقه نصر الدين المادي المهدى، ثم أحداث المصالحة الوطنية بين نظام مايو والصادق المهدى ١٩٧٧، ثم أحداث نيسان (أبريل) ١٩٨٥ التي انتهت بسقوط حكم مايو.

تطلغات مشروعة

كان يتباين أثناء أى من تلك الأحداث، فيما عدا انقلاب هاشم العطا، شعور غريب كنت أتعلّم فيه إلى تغيير جديد، وإلى شيء جديد فيه خير كثير ووفر للوطن. فقد ظننت ساعتها أن سادة مايو هم بداية ونهاية الظلم والفساد ولا بد من إقصائهم. كنت أتعلّم بعد أى من تلك الأحداث إلى عمل قومي كبير يؤمن للسودان وحدته ومسيرته نحو التقدم والازدهار في جو ديمقراطي تسوده الشورى، وأتعلّم في شغف شديد إلى معرفة أدق التفاصيل وردود الفعل على قرار تصفية الجزيرة أبا عسكريًا بظلالة المحلية والخارجية، ومعرفة أدق لحظات حركة أبي الإمام الشهيد حين استشهاده. كنت أريد كل ذلك مكتوبًا في محضر موثق للتاريخ، وأن يترك لنا كأنبائه وأنصاره الذين لا زالوا على يبيته أن نقرر ما نفعل بالقتلة، هل نقدمهم لمحاكمة، أم نذر دم الوالد الإمام الشهيد فداءً للديمقراطية والإسلام؟

ولكن هيئات فلم تفعل الديمقراطية الثالثة شيئاً من ذلك. فالشورى انتهت إلى خلاف، ومجازر الأنصار في الجزيرة أبا وودنوباوى أصبحت في ذمة التاريخ، وتفاصيل قرار ضرب أبا وما حدث لأبي الإمام لم يدركها أحد. كل الذي فعلوه هو تحريك رفاته من خور الدوم بالدمازين إلى قبة الإمام المهدى في أم درمان إعلاناً لموته والسعى وراء اختيار خليفة له. وأدركت ساعتها أنها على موعد لاختيار إمام جديد. أما عن جريمة الاغتيال فقد اكتفوا بالقبض على الصغار وتركوا الكبار صناع القرار. قبضوا على نفر من عساكر الصيف وصغار الضباط الذين كان دفاعهم عن أنفسهم بادياً على وجوههم، حيث قالوا أنهم نفّلوا التعليمات، وأنه لم تكن بينهم وبين الإمام عداوة، أو تنازع في حق أو مال أو سلطة حتى يعتذروا عليه ويقتلواه.

أدركت ساعتها أن الأمور ليست كلها أبيض أو أسود أو صواباً أو خطأً وإنما هناك تجاوزات، بعضها لطمس الحقيقة جزئياً أو كلياً، وهكذا كان مصير ذلك الشعور الغريب الذي كان يتتبالي عقب كل حدث .

بِلَّا انقلاب الرائد هاشم العطا ظهر يوم ٢١ تموز (يوليو) ١٩٧١ وقد كنت لحظتها خارج منزلنا في ودنوباوى بأم درمان عندما سمعت رجلاً على قارعة الطريق يقول في صوت عالٍ، أن انقلاباً عسكرياً قد حصل في الخرطوم وأن الشيوعيين استلموا البلد، وما أن وقعت في أذني كلمة شيوعيين حتى هرولت إلى داخل الدار فوجدت نفسي وجهاً لوجه مع أمي، فقللت لها في نبرات صارمة ما سمعت وكررت لها عبارة «الشيوعيين استلموا البلد» فكان جوابها «عاد كان كده البلد خربت» وصمتنا. وتوجهنا إلى المذيع فلم نسمع شيئاً غير اضطراب وذبذبات صوتية لا معنى لها، حتى أثانا اليقين عبر التليفزيون والراديو في بيان أذاعه الرائد هاشم العطا بنبرات مضطربة غير متassكة، فوقع بيانه ميتاً على عامة الشعب السوداني بينما سارع اليساريون، وهم قلة، في تجمعات محدودة يهتفون بحياة الاشتراكية ضد جعفر نميرى وتسلطه إلى تلك المتأفات .

تجمع رأى أهل لحظتها بأن الذي حدث هو صراع بين أركان نظام مايو. وعموماً فقد أكفيينا بالمثل السوداني القائل «ما خاصينا في البناء ولا البناء في الطوب» فكلامها أحمق من الآخر. انتهى انقلاب العطا بنكسة فاجعة على الشيوعيين حتى أن الأستاذ فؤاد مطر كتب كتاباً عن الحدث بعنوان «الحزب الشيوعى خروه أم انتحر؟». وفي كلتا الحالتين كانت الضربة قاصمة فلم يستعد منها الشيوعيون صحتهم في السياسة السودانية حتى اليوم، ورأوا عملياً ترجمة شعاراتهم التي رفعوها من «تقليم أظفار الرجعية» والمطالبة «بالتصوفية الدموية للرجعية» تحلى لهم وشربوا من الكأس التي سقووا منها الأطفال والنساء والشيوخ في مجازر أبا وودنوباوى .

أحداث ٢ تموز (يوليو)

أما أحداث ٢ تموز (يوليو) ١٩٧٦ ، فبغض النظر عن نهاية القرار السياسي بالشرع بها ، أبلِي رجالات الأنصار بلاءً حسناً شهد به الجميع . فقد أتوا أفراداً وجماعات شاكين السلاح للأخذ بثارهم من الذين حصلوا آباءهم وإنحصارهم ونسائهم وأطفالهم حصداً في أبا وودنوباوى باسم تصفية الرجعية والتخلف والطائفية ، وردموا عليهم التراب في قبور جماعية من دون رحمة أو شعائر دينية وبعضهم لم يكن لفظ أنفاسه بعد . لقد بدا واضحاً أن استمرار القصف المدفعي والجوى للجزيرة أبا من دون هوادة يعني بالضرورة تصفية سكانها عسكرياً وليس تهديداً بالضغط عليهم للتنازل عن مطالبهم بعودة الجيش إلى الشكبات وإجراء الانتخابات وإزالة اللافتة الشيوعية عن الحكم ..
لذلك .

لحظتها نصح مولانا الكارورى وأخرون الإمام المادى بالهجرة من الجزيرة أبا إلى موقع آخر يعيدون منه الكرا ، فقد كان واضحاً أن أبا جزيرة معزولة في النيل يصعب الدفاع عنها ، خاصة بقطع السلاح التي كانت بين أيديهم ، وأقنعواه أن الهجرة في الدفاع عن العقيدة والدين سنة ، فقد هاجر الرسول عليه السلام منها لأذى مشركي قريش إلى المدينة ، وأن الإمام المهدي حينما واجه الأتراك بالتصعيد العسكري الكبير بعد هزيمته لأبي السعود هاجر على جناح السرعة من الجزيرة أبا غرباً إلى منطقة قدير في جبال التوبه وبدأ استعداداته العسكرية من هناك وكان النصر حليفه . وبعد أخذ ورد في الأمر وتقويم للموقف من كل جوانبه المدنية والعسكرية بدأوا في تنفيذ أمر الهجرة ونجحوا في اختراق صفوف الجيش المترافق حول الجزيرة أبا ، وواصلوا سيرهم بالعربات حتى منطقة الكرمك على الحدود الأثيوبيه والتي حدث فيها ما حدث حسب السرد السابق . فقد أذاع راديو الحكومة أن الإمام ومن معه قتلوا في تراشق ناري بالرصاص مع جنود بوليس نقطة الكرمك . وقد وصف الراديو الإمام بكل ما هو قبيح من دون مراعاة لحرمة الموت .

وصمت شيخ الأنصار الذين سمعوا الخبر من الراديو في ذهول شديد ،

وقالوا ساعتها بأنها خدعة من الحكومة ولا بد من الهجرة واقتفاء أثر الإمام وخاصة أنهم هم الذين أيلوا هجرته وقبلوا معه القرار .

التقط قفاز المهاجرين والهجرة ، السياسي السوداني المعروف الشريف حسين الهندي يرحمه الله ، وجعل منهم شعلة متقدة للأخذ بثار الإمام وأنصاره الذين أيدوا عسكرياً في أبا وودنوباوى . فقد كان الشريف صديقاً وفياً للإمام الهاشمي رغم انتئهما الحزبي المختلف ، وتعاهد الرجلان على مقاومة نظام مايو واستيلاء العسكر على السلطة بانقلاب عسكري ، ولقيا ربهما وهما على ذلك العهد . سعى الشريف وقتها لدعم أثيوبيا لمعسكرات الهجرة الأنصارية فوجده ، وزاد الدعم موقف المغفور له الملك فيصل بن عبد العزيز الذي غضب لتصفية نماذج إسلامية جيدة . وأخيراً لأسباب سياسية بحثة وجذ الشريف حسين الهندي دعم ليبيا ، وأعلن الشريف في مهمته الكبيرة والخطيرة الدكتور عمر نور الدائم والأستاذ عثمان خالد مصبوى ونفر غير قليل من المقاتلين الأوفياء . وما أن استقر الأمر في معسكرات الأنصار في أثيوبيا حتى بدأوا للتخطيط في تأسيس معارضة سياسية عسكرية مناوية لحكم مايو قوامها العملي والميداني رجالات الأنصار وقوع فكرها جبهة سودانية وطنية عريضة تضم كل السودانيين عدا اليسار .

كان ذلك موقف المعارضة السودانية يوم أن انضم لها الصادق الصديق المهدى في بداية عام ١٩٧٥ بعد إطلاق سراحه من الاعتقال ، فبدأوا جميعاً التخطيط لعملية الغزو المسلح لإسقاط نظام مايو في عقر داره بقوة السلاح وعلى أيدي رجالات الأنصار الذين تم تدريتهم على حمله . وتسلل المقاتلون المدربون أفراداً وجماعات إلى مسرح العمليات في العاصمة المثلثة ولم يكن أحد في الداخل ، عدا قلة ، يعرف المخطط أو تفاصيله .

كانت الحياة تسير عادياً في دارنا إلى أن فوجئنا ذات مساء بوجود شقيقى نصر الدين وسطنا ، فقد أتى على غير مواعيد الأجازة للجامعات الألمانية التي

كان يدرس فيها، كذلك أني من دون إنذار أو إعلان مسبق. وما أن هللت لوصوله حتى طلب منا الصمت، فانزعته والدى وظننت ساعتها أن شيئاً غير كريم حدث له، ولكنه سارع بقوله، إنه أني في مهمة كبيرة تستهدف إسقاط حكم مايو، وسألناه في ازعاج شديد، وكيف ذلك؟ فأجاب: سيتم ذلك في خطة عسكرية محكمة هو أحد قياداتها مع آخرين. وطلب منا الصمت وعدم إعلان وصوله حتى إلى أقرب الأقربين، ثم تحرك نحو غرفته في الطابق العلوى من المنزل وظل ملزاً لها لا يرها إلا ليلاً ويرجع إليها في الساعات الأولى من الصباح.

كانت إجابات نصر الدين لاستفساراتي مقتضبة للغاية ولكن لكثرة الاستفسارات والإجابات استطعت أن أدرك أبعاد المخطط فسكت وتنبأت له التوفيق.

وكانت بداية المعركة المخططة لها في الصباح الباكر من يوم الجمعة ٢ تموز (يوليو) ١٩٧٦ ضربة بضررية ولكمة بكلمة. فقد بدا واضحاً، ولأسباب يعرفها المخططون، أن الخطة استهدفت معسكرات الجيش وكبار الضباط ودار الهاتف الذى احتله شباب الجبهة الإسلامية المسلحة ودار الإذاعة. كذلك استهدفت الخطة تحركات محسوبة لاحتلال المطار حيث يصل جعفر نميرى على متن طائرة الخطوط الجوية السودانية وفق توقيت معلوم. ولكن لقدر مكتوب، لم تكتمل الإجراءات المخططة لاعتقاله حيث حطت طائرته على أرض المطار ساعة قبل مواعيدها مما أربك خطة المقاتلين أو أربكه هو نفسه، فاختفى في عربة صغيرة إلى دار أحد أصدقائه ونجا من الاعتقال وظل مختفياً ليومين بعد استعادة قواته الهمينة على العاصمة المثلثة.

انسحبت قوات المعارضة بعد أن فشلت في تحقيق هدفها، وتركت خلفها أكثر من ٤٠٠ قتيل وجريح، وأقام نميرى مقبرة لشهداء قواته ومنح أسر الشهداء ضمادات كبيرة لمواجهة مستقبل الحياة الصعب بينما لم تهتم الديمقراطية

- ٦٠ -

الثالثة عند استلامها السلطة بعمل شيء لشهادتها الذين فقدتهم لاستعادة
الديمقراطية .

المصالحة الوطنية :

سمعنا بعد عام تقريباً من أحداث تموز (يوليو) ١٩٧٦ أن مصالحة قد
تمت بين جعفر نميرى والصادق المهدى وتفاءلنا بالأمر، فعلى أن تنتص
المصالحة الغبن الذى لحق بالأطراف المقاتلة وتزيل الأحقاد وتمسح الآلام
وستقطب كل السودانيين لعمل قومى إيجابى موحد. ولكن خاب فأئنا، فقد
بدأت المصالحة متعرّضة إلى أن انتهت بالقطيعة بين نميرى والصادق مما عرض
الصادق للأسفار المتصلة خارج السودان ثم أخيراً الاعتقال التحفظى.
والمدهش حقاً في الأمر، أنه وحتى هذه اللحظات لم تبرز وثيقة واحدة ممهورة
من الطرفين توضح اتفاق المصالحة. ويبدو لي أن الأمر لم يغدو أن يكون اتفاق
«جنتلمن» وغير مكتوب بين الصادق ونميرى ، ولعل نميرى فهم منه انه عفو
عام عن جمahir الأنصار التى أفلقت مضاجع حكمه بينما اعتبره الصادق توجهاً
نحو مصالحة عامة ومشاركة تامة في الحكم .

وفي عام ١٩٧٩ جلست لامتحان الشهادة السودانية ونجحت فيها بمرور
عال مكتنى من الالتحاق بكلية العلوم بجامعة الخرطوم . وبعد قضاء العام الأول
في تلك الدراسة شعرت أنها لاتفى طموحاتى التي ملأت نفسى في دراسة
الطب . وما أنت الفرصة مواتية في منحة دراسية من العاهل الأردنى الملك
حسين لدراسة الطب في الجامعة الأردنية حتى توجهت إلى هنالك . بعد قضاء
عام في جامعة الأردن كاتبت كلية الطب بجامعة الجزيرة بأمر درمان في السودان
فقبلت تحويلي والتحقت بها حيث تخرجت كطبيب امتياز في شباط (فبراير)
١٩٨٦ وبذلك حققت حلمأً كبيراً .

ردود الفعل للمقالات التي صدرت بمجلة التضامن.

ظهرت العديد من ردود الفعل على الحلقات المنشورة بمجلة التضامن ولعل أهمها مجموعة من الأسئلة والاستفسارات وجهها الأستاذ إبراهيم عبد الله الغرباوي السوداني المقيم في ليبيا وهي :

ثمة أسئلة ملحة محورها دائرة المهدي وحزب الأمة لن تكون في إمكانية الدكتور الصادق الماهدي من طرحها في خضم مذكراته على صفحات مجلة «التضامن» الغراء ولكن أود باقتضاب التنويه إلى بعض الأسئلة لإثراء المواضيع التي تناولها الدكتور، وكذلك لاعطاء المذكرات صبغة المراجعة السياسية الحية لحزب الأمة ومساهمته في الحياة السياسية منذ تولى السيد عبد الرحمن المهدي قيادة الحزب وطائفته الأنصار ويمكن تلخيص الأسئلة في الآتي :

لماذا كُرست القيادة لحزب الأمة فقط من عائلة المهدي المالكة ولماذا تم تهيئش دور عائلة عبد الله التعايشي الرجل الأقوى في نجاح الثورة؟
ولماذا أحجم أبناء الخليفة عن المشاركة الفعالة في تطوير حزب الأمة وما هي الأسباب التي ساهمت في تبني أبناء الخليفة عبد الله أمثال الدكتور عز الدين المهدي وداود الخليفة وغيرهم في انتقاد سياسة عائلة المهدي وأسلوب الهيمنة؟.

لماذا حاول السيد عبد الرحمن المهدي والإمام الماهدي المحافظة على سياسة القمة القيادية المثقفة المؤهلة والقاعدة الجماهيرية الأنصارية الأمية الفقيرة؟ وهل هو تطبيق حى للمثل العربي المعروف «جوع كلبك يتبعك»؟

ما هي أسباب الخلاف السياسي العميق بين الصادق المهدي والإمام الماهدي عبد الرحمن (والد كاتب المذكرات) ولماذا قاوم الإمام الماهدي سياسة الصادق المهدي التطويرية وتحديث حزب الأمة بمزيد من الحث على تعليم أبناء الأنصار وردم الهوة السحرية بين القمة المتعلمة في الجامعات البريطانية والقاعدة الأمية المفعمة في وحل التبعية المطلقة؟

لماذا لم تسارع دائرة المهدي رغم الثروات التي يحوزتها في تطوير الجزيرة أياً وإقامة المدارس والمعاهد الدينية علمًا بأن الأنصار أكثر الفئات الاجتماعية حباً

- ٦٢ -

للدين وأكثر شغفاً للعلم رغم أن الجزيرة أباً كانت تعيش في وحل الأمية .

لماذا حاولت عائلة المهدى الاستحواذ على أموال دائرة المهدى علمًا بأن بعض الأموال الاستثمارية هي محصلة جهد وعرق الأنصار القراء الذين عملوا بسخاء غريب في قطع الأشجار والأنهشاب التي استعملت في الكمائن الطوبية لإيفاء المقاولات في عصر الحكم الثنائى حيث تعتبر بداية القطرة في ثراء بيت المهدى الشائر السودانى الاجتماعى الذى لم يترك أى أموال ورثة لأبنائه حيث مات فقيراً عفيفاً بينما عاش ويعيش أحفاده وأبناؤه في تنعم ورفاهية . والطرف الثاني من قاعدة تجميع المال لدائرة المهدى هي أموال الزكاة والصدقات التى تجمع من أغنياء الأنصار فى غرب السودان المعطاء الذى كان لنصيبه المزيد من التجاهل ، والفقر والأمية . ولم تحاول دائرة المهدى وحزب الأمة القضاء على فقر الأنصار خاصة المقيمين فى الجزيرة أباً والمشاريع الزراعية التابعة لدائرة .

لماذا اعتمد حزب الأمة على بعض الشخصيات اللامعة مثل محمد أحمد محجوب علمًا بأنه لم يكن يوماً يؤمن بالمهديوية والأنصارية بل يعتبرها تحفة من آثار الماضي .

أم كانت من نتائج وإفرازات المحافظة على القيادة السياسية السودانية تحت كل مسمى ؟

ما هي الأسباب التي تساهم في تكريس الأنصار في ثلاثة راتب المهدى وعلم توسيع دائرة الاطلاع للفقة والأحاديث حتى يتمكن المسلم الأنصارى من توسيع مداركه الدينية في المذاهب المختلفة بدلاً من القوقة في كتيب (الراتب) الذى يحمل صوراً لزعماء عائلة المهدى ومع قليل من الآيات والدعوات المكررة ؟ وهل هذه النتيجة إفراز لقلة المستوى التعليمي الدينى للإمام الهادى المهدى وعبد الرحمن المهدى اللذين لم يأخذنا إلا قسطاً زهيداً من التعليم الإسلامي المتتطور رغم التمعن بلقب الإمامية التقليدية ؟

لقد ساهمت منظومة حزب الأمة السياسية في هجرة أبناء الأنصار والدخول في هيئات وأحزاب مثل الحزب الشيوعى والبعث الاشتراكي والجبهة

- ٦٣ -

القومية الإسلامية، ويمكن إطلاق صفة الأحزاب الهرمة التي دبت فيها الشيوخة في أو صاحها ولكن كيف حافظ حزب الأمة على المقادير السياسية في السودان؟ وكيف يمكن كذلك من تلميع صورة الحزب لتكون أكثر نصرة وشباباً؟

لماذا حاول زعماء حزب الأمة من عائلة المهدى التأكيد من أن الإمام المادى حتى وسوف يعود وأنه عيسى المسيح وأنه المنقذ الوحيد - رغم أن المعروف أن الإمام المادى قتل في ١٩٧٠ - ولماذا حاول ولى الدين ونصر الدين المادى المهدى من تكريس هذه المفاهيم الخاطئة في أذهان الأنصار المقيمين في معسكراتهم في أثيوبيا ، وهل هي بمثابة توظيف سياسى اقتصادى للمعونات التى كانت ترسل لتلك الفئات لكي تدوم في معسكراتهم زهاء تسعه عشر عاماً .. وما هي التعويضات التي منحت لعائلات الأنصار الذين ماتوا في أحداث الجزيرة أبا وودنوباوى في آذار (مارس) ١٩٧٠ ؟

حديثاً : لماذا يحاول حزب الأمة بقيادة مبارك المهدى توقيع اتفاقية بين حزب الأمة وحركة تحرير السودان بقيادة العقيد جون قرنق - علماً أنهما طرفان نقىضان في المفاهيم الدينية والسياسية - ومن نتائج الاتفاق سوف يكون غرب السودان هو الخاسر الأعظم نسبة لأن جميع أو معظم الجنود في الرتب الدنيا في الجيش السوداني من غرب السودان وكذلك يزج ميليشيات حزب الأمة في أتون الحرب وسوف يدفعون الثمن ، علماً أن معظم المنضوين في الميليشيات كذلك من غرب السودان !! لذا ما هي النقاط الاستراتيجية في الانفاقية الحديثة ؟

وإلى اللقاء في الإيضاح مع أسئلة أخرى مع الشكر ،،،

إبراهيم عبد الله الغرياوي

(سودان)

طرابلس - ليبيا

رسالة الدكتور الصادق الهاشمي المهدى

الأخ الأستاذ فؤاد مطر

بعد تحياتي

لقد اطلعت على الأسئلة المتعددة التي وجهها القارئ إبراهيم عبد الله الغرباوي من طرابلس، هذه الأسئلة، بعد الاطلاع عليها أكثر من مرة، أجدها في مضمونها تنقصها الدقة في التعبير والمعلومات الصحيحة والدقيقة كما يدعى السائل، وتبليو كأنها كتبت بغفوة بهجوم سافر لا يبرر له إدانة كيان الأنصار منذ تجميعه على عهد الاحتلال، وكذلك إدانة لقياداته السياسية المعروفة. وفي تقديرى أن القارئ جنح في لا مبالغة بالخروج عن لغة الخطابة الموضوعية إلى إرسال التعبير في عفوية تامة للاستفزاز والإهراج، وذلك أسلوب اتحفظ عليه، فإذا كانت تلك العفوية في الخطابة هي طبع السائل وأسلوب القارئ خطابة الآخرين فأرجوه مراجعة ذلك الأسلوب، فحاشى أن يكون الإمام عبد الرحمن الهاشمي بالصفات والاتهامات التي يحاول القارئ وصفهما بهما، فالإمام عبد الرحمن أُنجز ما وعد «السودان للسودانيين»، والإمام الهاشمي سقط شهيداً دون رايته من رفض حكم العسكر بلافتة الشيوعية التي رفعها يوم استيلائه على السلطة صبيحة ١٨٦٩/٥/٢٥ فذهب مع النبئين والصديقين والشهداء وحسن أولئك رفيقاً.

في تقديرى أن ما ذهب القارئ إليه بتلك الأسئلة وبذلك الأسلوب إنما هو نوع من التكرار الممل لكتاب اليسار السودانيين في سنن الخمسينيات من جريدة «الصراحة» السودانية، فقد حاولت تلك الجريدة كل جهدها آنذاك في أكثر من مقال ومحاجة ويمثل عموميات ثهم القارئ الصاق لقب صديق أفندي بالسيد الصديق المهدى مدير عام دائرة المهدى وقتها والإمام الصديق فيما بعد، مما أدى إلى مواجهة لم يحمد عقباها.

- ٦٥ -

مع ذلك لا أجد حرجاً في التعامل مع مثل هذه الأسئلة، فمقالاتي وكتاباتي مجردة للتاريخ والقضية عامة، والأشخاص المعنيون حينها تناط ب شأنهم ليس بالضرورة أن تنطلق من موقف (والد كاتب المذكرات) فهم للتاريخ لأنهم من صناع التاريخ، وبعد الاطلاع على الأسئلة لأكثر من مرة أجد نفسي مضطراً إلى تبويتها وترتيبها تفادياً للتكرار وهكذا في رحابة صدر ما أرى.

وتفضوا بفاتق شكري واحترامي ،،،

الصادق الهادى المهدى

السؤال الأول وجوابه بين إبراهيم الغرباوي والدكتور الصادق المادي

ثمة أسئلة ملحة محورها دائرة المهدي وحزب الأمة لن تكون في إمكانية الدكتور الصادق المادي المهدي من طرحها في خضم مذكراته على صفحات مجلة «التضامن» الغراء ولكن أود باقتضاب أن أنوه إلى بعض الأسئلة لإثراء المواضيع التي تناولها الدكتور وكذلك لاطعاء المذكريات صبغة المراجعة السياسية الحية لحزب الأمة ومساهمته في الحياة السياسية منذ تولي السيد عبد الرحمن المهدي قيادة الحزب وطائفة الأنصار ويمكن تلخيص الأسئلة في الآتي :

لماذا كرست القيادة لحزب الأمة فقط في عائلة المهدي المالكة ولماذا تم تهميش دور عائلة عبدالله التعايشى الرجل الأقوى في نجاح الثورة المهديّة؟
ولماذا أحجم أبناء الخليفة من المشاركة الفعالة في تطوير حزب الأمة وما هي الأسباب التي ساهمت في تبني أبناء الخليفة عبد الله أمثال د. عز الدين المهدي ودادواد الخليفة وغيرهم في انتقاد سياسة عائلة المهدي وأسلوب اليمينة؟ ثم لماذا حاول السيد عبد الرحمن المهدي والإمام الصادق المادي في المحافظة على سياسة القمة القيادية المثقفة المؤهلة والقاعدة الجماهيرية الأنصارية الأمية الفقرة؟ وهل هو تطبيق حتى للمثل العربي المعروف، وما هي الأسباب التي تساهم في تكريس الأنصار في تلاوة راتب المهدي وعدم توسيع دائرة الاطلاع للفقة والأحاديث حتى يمكن المسلم الأنصارى من توسيع مداركه الدينية في المذاهب المختلفة بدلاً من القوقة في كتيب (راتب) الذى يحمل صوراً لزعماء عائلة المهدي ومع قليل من الآيات والدعوات المكررة؟ وهل هذه النتيجة إفراز لقلة المستوى التعليمي الدينى للإمام الصادق المادي وعبد الرحمن المهدي اللذين لم يأخذوا إلا قسطاً زهيداً من التعليم الإسلامى المنظور رغم انتخابه بلقب الإمامية التقليدية؟

وفي الآتي : جواب الدكتور الصادق المهدى :

في البداية وقبل السير قدماً في الرد على الأخ إبراهيم، أرى أنه لابد من وقفة قصيرة لتوضيح وإبراز نقطة أساسية، عن ماهية وهوية كيان الأنصار، منذ نشأته وحتى يومنا هذا، لتصحيح بعض المفاهيم الخاطئة التي يرسلها البعض جزافاً أو عن قصد يتهمونه فيها بالطائفية أو الطائفية الدينية من دون التحقيق عن مدلولات أو معان الكلمة، كما هي مستعملة في القاموس السوداني السياسي اليوم، وهو مفهوم قصد به الوصف بالتخلف والعجز والشرذمة مما لا يتفق والخلفية التاريخية والسياسية للكيان وعطائه النشط والمتصل لأكثر من قرن على الساحة السياسية السودانية، وبذلك يصبح هذا الكيان من أعرق وأقدم التكوينات السياسية ليس في السودان فحسب بل في العالم العربي والإسلامي على الإجماع .

الخلفية التاريخية والسياسية لكيان الأنصار كما جاءت في المقالات السابقة، تقول بإيجاز، شديد، أن كلمة «الأنصار» هي تسمية سياسية دينية أطلقها الإمام محمد أحمد المهدى على أواخر القرن الهجرى الماضي لكل الذين هبوا من أبناء وبنات السودان وقها لنصر دعوته لتحكم كتاب الله وسنة رسوله لإزالة المظالم والبدع التي أباحها الحديسيون والعثمانيون في العالم الإسلامي. وهى تسمية اختارها الإمام المهدى وفق قوله تعالى ﴿وَيَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُونُوا أَنْصَارَ اللَّهِ﴾ كما قال عيسى ابن مريم للحواريين من أنصارى إلى الله قال الحواريون نحن أنصار الله فآمنت طائفة من بني إسرائيل وكفرت طائفة فأيدنا الذين آمنوا على عدوهم فأصبحوا ظاهرين ﴿وَمُتَفَقِّهُونَ﴾، ومتفرقة مع نهج وسنة الرسول ﷺ حينما أطلق كلمة الأنصار على مجموعات المدينة من قبائل الأوس والخزرج . التي آتاه ونصرت دعوته حين المجزرة لتشييت الرسالة السماوية بالدعوة الإسلامية إلى كافة البشر .

ذلك من أمر التسمية وبداية الدعوة ، فلم تكن دعوة الإمام المهدى لأبناء وبنات السودان للانضمام والانخراط في طائفة أو طريقة صوفية أسسها هو ، أو

- ٦٨ -

أن يكون هو شيخاً لطريقة صوفية أو طائفة أسمها الأنصار - إنما كانت دعوة جهادية ثورية بالمعنى المتعارف عليه في الفقه الإسلامي - جمعت سلالات سودانية مقاتلة كان لها الغلبة السياسية والاقتصادية على أوضاع السودان بعد انتصار الثورة وتأسيس الدولة، فبهم قامت تلك الدولة ومنهم سقطت (١٨٨١ - ١٨٩٨).

أسس الأنصار بتوجيه الإمام المهدى مدينة أم درمان كعاصمة لحكمهم، وقد سماها الإمام المقاتل (البقعة المباركة) وفيها قبره، ولا زال مكان قبره (القبة) هو المعلم الأساسي في المدينة، وما زالت أم درمان وحتى بعد الاحتلال المصرى الإنكليزى ١٨٩٨م وإلى اليوم هي العاصمة القومية للسودان، فيها نمت الأنشطة الثقافية والأدبية التي أفضت إلى قيام الأحزاب السياسية التى قادت البلاد إلى الاستقلال في ١٩٥٦/١/١، وكذلك نشأت فيها الأندية الرياضية والفنية والثقافية والاجتماعية .

وقد تغنى الشعراء بتاريخ أم درمان بزهو وفخر شديدين ، وكذلك تغنو بجماليها وجمال حسناتها في تحف رائعة من الأدب السوداني المعاصر ، ولعل أجمل ما قيل في تاريخ أم درمان ، هو تاريخ الأنصار ، ما نظمه الشاعر عبد الله محمد زين في عصيائه التي يتغنى به كل السودانيين في أدب شعبي رائع ألهب الحماسة للمستمعين وهي قصيدة رائعة تتحدث عن ملحمة التاريخ الأنصارى ، من الجهد والثورة والدولة والثورات ، ولا تتحدث عن الطائفية أو الطائفية والشعوذة والتخلف وهي صفات يحاول بعضهم في سذاجة إلصاقها بالكيان ، فهيا إلى مختارات من القصيدة مع تعليقات مناسبة عسى أن تختصر لنا الطريق لتوضيع ما نحن بصدده في هذه المقالة :

أنا أم درمان أنا السودان	أنا الدر اليزيں بلدى
أقوم بأعظم الأدوار	وأقود الساحة للثوار
أنا أم درمان سليله السيل	قسمت الليل وقامت صباح
أنا الولىونى بالتهليل	وهلت فوق غابة رماح
أنا الطاية المقابلة النيل	وأنا العافية البشد الحيل

أنا القبة البتضوى الليل	أنا أم درمان ده ميلادى
وتهدى الناس سلام وأمان	أنا القسمت أولادى
وتيلادى البشيل اسى	وكنت القوة والجولة
شرافه وسيف على وسمى	وكنت الراية والنولة
وحزت وفزت بالجولة	أنا أم درمان نصرت الدين
وفي التاريخ بقيت عنوان	وروحوا حول ناس صادفين
و كنت فداية للإسلام	وذانوا الجودة وال فكرة
ضناهم من حيائى غرام	ودخلوا المدرسة الكبرى
وخلدوا أعظم الذكرى	أنا أم درمان سقاني النيل
ونالوا شهادة الإيمان	أنا لي مجده كت دليل
رحيق العزة من كاسه	أنا الفى الشاطئ الغربى
واية وحدة لناسوا	وأنا النيل طلب قرى
سقوط غردون مهر حرثى	
مزج من كافة الألوان	

ذاك نغم شجى تتطبق عليه عبارة السهل الممتنع، وهو نغم يرددده السودانيون على مختلف مشاربهم في زهو وحماس، فتعابير الشاعر البسيطة تفسر تاريخاً كاملاً لللاحِم من البطولات للأباء والأجداد، لا توافق مواصفاتها مواصفات الطائفية كما هو متعارف عليها في العالم العربي والإسلامي، أو مواصفات التشرذم والتخلُّف إنما هو تجمع لثوار .

فأم درمان حسب القصص والأدب الشعبي تقوم بأعظم الأدوار وتقود الساحة الثوار وهي التي ولدوها أو أنشأوها بالتهليل وشارات الثورة، وقد هلت على أرضها حين ميلادها غابة من الرماح كنایة عن الحشود الصامدة والمقاتلة من الثوار الذين زحفوا كالسيل المنحدر بعد انتصار شيكان للخرطوم، وهي القبة التي تصوّى الليل قبة الإمام المهدي التي شهدتها الناس سلام وأمان، والإمام المهدي لا يحكم السودان من قبره، كما يحاول الكثيرون إعطاء هذا الانطباع، إنما تحكم السودان الباقيات الصالحة من أعماله، وأم درمان هي

- ٧٠ -

التي قدمت أولادها شرافة وسيف على سماها ورفقت فوق سمائها رايات الثورة الخفاقة ، وأم درمان هي الثورة التي ذهب فداءها أناس صادقون طيبون مجاهدون فتنوا بغرامها وبجها وبحب التراب السوداني ، فخلعوا أعظم الذكرى للاحتم حرية قل أن يجد الزمان بثلها ، ونالوا شهادة الإيمان والجهاد والاستشهاد .

وأم درمان تفخر بنفسها ، وكيف كان مقتل الجنرال الانكليزي غردون في الشاطئ الغربي من النيل وبعد سقوط الخرطوم ، هو مهر حربها ونهاية حكم الأتراك وبداية استقلال السودان .

وهكذا تسير القصيدة ، لا طائفية ولا تخلف ، ولا شعوذة ، إنما نضال وكفاح وشهادة ، وعطاء بلا حدود ، ذلك هو تاريخ الأنصار في نغم شجي وكلمات بسيطة لا يستطيع كائن من كان أن يسلخهم ذلك التاريخ فهم لا يسرون شيئاً من دونه .

تلك كانت البداية ، ولقد تواصل مشوار كيان الأنصار على الساحة السياسية السودانية على عهدى الاحتلال والاستقلال وفق توجيهات الإمام عبد الرحمن المهدى حيث أدخل فيه كما أسلفنا مبدأ قبول الديمقراطية والرأى الآخر وأشياء أخرى متعددة ، ومع كل ذلك احتفظ الكيان بموروثات عديدة أهمها :

البقاء على المساحة الجهادية في كثير من معاملاتهم السياسية خاصة وأن كثيراً من مقاتلي الثورة كانوا أحياء على أيام عهد الاحتلال الأولى فأورثوا أبناءهم وأحفادهم خبرتهم الغالية ، من معارك الأبيض وشيكان والخرطوم ، كما أورثوهم عناء المثابرة على الشدائيد والهزائم في توشكى والخفير والنخيلية وكروي وأم ديبيرات والشكابة .

كذلك ورث الكيان التفاعل مع الأحداث السياسية على الساحة السودانية ، أيا كان قدرها ، ذلك لأنه كيان أصيل فيها أفرزته بعد نضال وكفاح

وثورة ، ولم تفرزه طائفة أو زاوية أو طريقة صوفية بعينها وعليه لم يكن ممكناً لقيادات الأنصار أن يجتمعوا لأداء الشعائر الدينية فقط ويقولون في كلمات محسوبة أنهم أهل دين فقط وربنا يولي من يصلح أو هكذا يقول بعضهم ، أما قيادات الأنصار فقد فرضت عليهم خلفيتهم السياسية ، إبداء الرأي السياسي أيًا كان نوعه وقلره .

لقد حاولت قوات الاحتلال إقتحام الإمام عبد الرحمن المهدى بإنشاء طريقة تنسب إليه «الرحمانية» والتخلى عن الالتزام بكيان الأنصار ، مثل طائفة القيدانية في الهند التى أسسها الشيخ أحمد القيدان ، لكنه أبقى على كيان الأنصار ورفع شعارات :

لا شيع ولا طائف ولا أحزاب ، ديننا الإسلام ووطننا السودان ، وبذلك الشعار تعاون مع طلائع المثقفين السودانيين ودعم مؤتمر الخريجين العام منذ يومه الأول وحتى انقسامه إلى جهات متعددة ، ولعله كان أكبر التبرعين لإنجاح نشاطات المؤتمر في يوم التعليم ومحاربة الأمية ، وحينما انقسم المؤتمر إلى جبهات أمها الجبهة الاتحادية التى ارتأت الاتحاد مع مصر تحت واحة وادى النيل ثم الجبهة الاستقلالية التى طالبت باستقلال السودان كلياً عن دولته الحکم الثنائي وانختار الإمام عبد الرحمن مع الجبهة الاستقلالية ، فأسسوا حزب الأمة ورفع الإمام عبد الرحمن شعار «السودان للسودانيين» وكان خصمه لصدقها يقولون «كلمة حق أريد بها باطل» ولكنها بقيت وكسبت الجولة حينما انحازت المجموعة الاتحادية إلى راية الاستقلال .

هناك سؤالان بارزان يفرضان نفسهما بإلحاح شديد ، أوهما : أبعد كل الذى سفنه وسردناه عن تاريخ نشأة كيان الأنصار السياسية والدينية ، أيجيسيه الأخ إبراهيم ومن هذا حنوه تكونينا طائفياً رجعياً متخلفاً ؟ أم ماذا . إذا كان تكوين كيان الأنصار طائفياً ورجعياً ، إذاً فكل بدأية تاريخ السودان الحديث وأبعاده التى يهاهى بها الأمم ، ترتد إلى رجعية طائفية ، وحدث ولا حرج .

أما ثانى الأسئلة فهو كشكوك من التهم يرسله الأخ إبراهيم الغرباوي في

- ٧٢ -

أنفاس قصيرة متقطعة تهم الإمام عبد الرحمن وتصفعه بالثرى الممعن في الراحات
وملذات الحياة والجاه على هامات ومقدرات رجالات الأنصار الذين احتكروا
قيادتهم لنفسه، نحن نقول أن ذلك الوصف يجافي الحقيقة فالحال الذي يتحدث
عنه الغريباوى ومن حذا حذوه اندثر على سفوح جبل كررى في صبيحة
٢ أيلول (سبتمبر) ١٨٩٨ .

أما ما حدث بعد ذلك فيعبر عن عطاء الرجل ومقدراته القيادية في تجميع
قيادات كيان الأنصار بعد الشتات الذي أصابها من هزائم توشكى والحفير
والنخيلة وكجرى وأم ديكرات والشراكبة التي أصيب فيها بالرصاص على كتفه
وهو دون الثالثة عشرة من عمره ، لم يعطه أحد قيادة كيان الأنصار ، أو حزب
الأمة الذي أسهم في تأسيسه ، إنما برع الرجل ليقود الزمام بنفسه دون أبناء
الأسر الأنصارية العربية بما فيهم أبناء الخليفة عبد الله ، وأبناء الخليفة الذين
يتحدث عنهم الغريباوى في حسرة شديدة أبعدوا أنفسهم عن حزب الأمة
لأسباب يعرفونها ثم عادوا وتبأوا أعلى المناصب باسمه ، فها هو السيد داود
ال الخليفة (رحمه الله) وابنه محمد وابن عميه صلاح عبد السلام يحتلون أرفع
المناصب باسم حزب الأمة ، وأن محمد داود أسقط الصادق المهدى في
الانتخابات حرب الأمة عام ١٩٦٧ فماذا تقول بعد ذلك ؟

حياة الإمام عبد الرحمن مليئة بالتفاعلات مع الأحداث ، فهو الذي بدأ من
العلم مطارداً من قوات الاحتلال ، فالمصريون يريدون قبره ، والإنجليز يخشون
بعث الدعوة المهديية الجهادية في شخصه ومع ذلك أفلح في الإفلات من
التصفية الجسدية التي أضمرها له .

فحشّ وزرع بيده وكان لا جهاداته وعطائه المتصل دور أساسى في توليف
قلوب الرجال حوله وتوظيف عطائهم لتحرير السودان واستقلاله الوطنى ،
إطلاق التهم . على عواهنه بتهمة الثراء والترف لا يفيد كثيراً ، إنما يوغر
الصدور ، فهناك عدد من المؤلفات والوثائق المحققة ، بعضها بحوث تاريخية نال
به عدد من السودانيين أرفع الشهادات العلمية من الجامعات السودانية

والأجنبية حول الرجل ومعاصريه، أثبتت مقدراته وعطائه بلا حدود للوقوف تحت رأية الاستقلال وكفاه ذلك فخرًا، ماذا يريد الغرباوي ومثاله، أيريون إقامة محكمة تاريخية للإمام عبد الرحمن لبعثه بكتاب الأنصار والتصدى لقيادته والانتصار به لدعوة الاستقلال الوطنى؟ أم ماذا ؟؟

أما جزعه عن بقاء قيادة الأنصار في عقبه ، فذلك من شأن الأنصار ، ويحدثنا التاريخ فيقول أن تلك القيادة الموروثة سوف تبقى متى ما كان عطاها في مستوى الأحداث ، وسوف تسقط متى ما تقاعست واسترخت وعجزت عن الأضطلاع بالدور المطلوب منها .

أما اتهامك للإمام عبد الرحمن والإمام الهادى «في المحافظة على سياسة القمة القيادية المثقفة المؤهلة والقاعدة الجماهيرية الأنصارية الأمية الفقيرة» ، ثم أردفها في صفحة أخرى بتهمة «قلة المستوى التعليمي الدينى للإمام الهادى المهدى والإمام عبد الرحمن المهدى ، اللذين لم يأخذنا إلا قسطاً زهيداً من التعليم الإسلامي المتتطور ، رغم التمتع بلقب الإمامية التقليدية؟» فيه تناقض واضح يكشف عن عدم الثبات على رأى واحد ، وعدم ترتيب الأفكار فيما تتحدث عنه ، بل إنك ترسل التهم جزافاً وعلى عجل ، إذ كيف يمكن لجاهلين الإبقاء على المثقفين والتعامل معهم ، ومع ذلك أقول لك :

إن الإمام عبد الرحمن المهدي كان تعليمه أساساً دينياً ، بدأ تحت رعاية الخليفة عبد الله في خلوة أبناء المهدي بالقبة إبان الدولة المهدية وحتى سقوطها عام ١٨٩٨ وكان عمره آنذاك قد ناهز الثلاثة عشر عاماً ، أما بعد الاحتلال وبعد معركة الشカابة التي كان مفروضاً أن يتم فيها تصفيته جسدياً ، ثم الإقامة الجبرية في جزيرة الفيل بالقرب من واد مدنى قبل السماح له بدخول الشيخ الإسلام الشيخ محمد البلوى للدراسة الفقهية والتوحيد إلى آخر ما كانت تجود به حلقة الشيخ آنذاك ، وقد مكث هناك بعض سنين كان خلاله لا يعقد الشيخ حلقته إلا بعد حضوره ، فقد سمع عن الشيخ محمد البلوى أنه حينها

يدخل عليه حاجبه ليأذن ببداية الدرس ، يسأل « ولد المهدى جاء » ، فإذا كانت الإجابة بالإثبات بدأت الحلقة ولا انتظر ، وقد احتج بعض التلاميذ على ذلك ، فقال لهم الشيخ : هذا يستفيد من علمه قوم كثير ، وكأنما كان يتوسّم فيه الإمامة لجموع المسلمين .

وعندما قويت شكيمة الإمام عبد الرحمن وببدأ حياته العلمية ، كان له أصدقاء كثيرون من علماء الإسلام من كل الأجناس ، أضف إلى ذلك ، فقد كان من أعز أصدقائه الشيخ أبو شامة عبد الحمود مفتى الديار وشيخ علماء السودان ، فقد عرف عن الإمام عبد الرحمن ، أنه كان مولعاً بالعلم والعلماء والمثقفين وساعد بهله ووقته وعلاقته كل المؤسسات التعليمية القائمة في السودان آنذاك ، إضافة إلى جهوده الجبارية في إنجاح يوم التعليم الذي نظمه مؤتمر الخريجين العام ، كذلك ساعد سيادته عدداً لا يستهان به من طلاب العلم لتكملة دراستهم سواء في السودان أو خارجه ، واشتري بيت السودان (مبني الملحقية الثقافية حالياً في لندن) هدية لإقامة الطلبة السودانيين في لندن ، لا أدرى كيف يوصف رجل بتلك التوجهات والذب عن العلم بإبقاء قاعدهه الأنصارية في وحل من الجهل . راجع جريدة الرأي العام ٩ نوفمبر ١٩٤٦ م.

أما الإمام الهادى فقد كان تعليمه عصرياً بدأ بالخلوة في الجزيرة أبا ثم ودنوباوى ثم درس في رفاعة وفي مدارس الأحفاد وكلية غردون ثم أكمل تعليمه في كلية فيكتوريا بالإسكندرية ، حيث زامل الشريف حسين الهندى ، فيما مكن فيما بعد لصداقة وعلاقة قوية بينهما إلى أن لقيا ريهما ولم تصافح أيديهم حكام مايو العسكريين . بعد الإسكندرية ، رجع الإمام الهادى للسودان لمساعدة والده ، حيث أقام معظم أوقاته في الجزيرة أبا فتبحر في العلوم خاصة الإسلامي منها ، وصادق العلماء أمثال الشيخ حسن مدثر قاضى القضاة ، وشيوخ الأنصار وحفظ القرآن ، كان في رفقته دائماً العلماء وأهل العلم مما تسبب له في مشاكل عنيفة قادت إلى انقسام حزب الأمة ، مما سوف نطرقه لاحقاً ، فقد ظن الكثيرون من سياسي حزب الأمة أن توجهاته الدينية وحديثه المتصل عن الجمهورية الإسلامية ومصادقه لرجال الدين من دون السياسيين

- ٧٥ -

قد تقود الحزب إلى التزامات لا يستطيعون الإبقاء عليها ، ويكتفيه فخرًا أنه لقى ربه مستشهاداً في سبيل الإسلام ضد إقامة نظام ماركسي في السودان .

كان الإمام الماهي يحرص على إمامية المسلمين للأوقات الخمسة من اليوم في الجامع ثم يحضر بانتظام جلسات قراءة راتب الإمام الماهي في أوقاته المعلومة ، وهكذا كان شأنه ودربه ، فهل يوصف الذي جمع بين التعليم العصري والتفقه في الدين من أنه نال قسطاً زهيداً من التعليم .

أما استشهادك بالمثل العربي القائل « جُوعَ كَلْبَكَ يَتَبعُكَ » كناية عن فقر الأنصار وتجويعهم بواسطة الإمام عبد الرحمن الماهي حتى يتبعوه ، وفي صفحة أخرى تتحدث عن « الطرف الثاني من قاعدة تجميع المال لدائرة الماهي هي أموال الزكاة والصدقات التي تجمع من أغبياء الأنصار من غرب السودان المعطاء الذي كان نصيحة المزيد من التجاهل والفقر والأمية ». فيه تضارب واضح ينم عن اضطراب وجهل بالحقيقة . فحصيلة كلامك تفيد بأن هناك أنصاراً أغبياء وأنصاراً فقراء شأنهم شأن بقية أفراد الشعب السوداني الكريم ، وعموماً فمثلك « جُوعَ كَلْبَكَ يَتَبعُكَ » محدود في تعبيره وبخاف الواقع الذي أقررته في عباراتك ولا ينطبق على ما كنت تنوى التعبير عنه .

فكم هو معروف لم يكن الإمام عبد الرحمن حاكماً للسودان حتى يحرم من يشاء للدرجة الجوع ليتبعه ، فالذى كان يحكم السودان حتى ١٩٥٦ هـ جنود وإداريو الاحتلال مثلين في حاكم عام السودان ، كذلك توف الإمام عبد الرحمن في آذار (مارس) ١٩٥٩ أى حوالي ثلث سنوات بعد الاستقلال ، كان الفريق عبود حاكماً فيها لمدة نصف عام تقريباً ، والسيد إسماعيل الأزهري لنصف آخر ، وحصيلة العامين بين حكم أزهري وعبود قامت فيما حكومة ائتلافية بين حزب الأمة والشعب الديمقراطي . بمعنى آخر لم ينفرد حزب الأمة الذي يتزعمه الإمام عبد الرحمن بالحكم إطلاقاً . حتى تكون للإمام السلطة والجبرة في تجويع من يشاء من الأنصار حتى يتبعه . كذلك من المسلم به أن رجالات الأنصار يشكلون شريحة يفوق عددها ملايين السودانيين ، ولا يعقل

أحد أن يكون كل أولئك موظفين للإمام عبد الرحمن ، حتى يحرمهم مرتباتهم ليتبعوه جوعاً ، فالذين خدموا الإمام عبد الرحمن من رجالات الأنصار لا يتعدون الأصابع ، والذين تعاونوا معه اقتصادياً في الجزيرة أبا ، مما سنعود له لاحقاً ، لا يتعدون الآلاف ، أما بقية الملايين من رجالات ونساء الأنصار في البوادي والأرياف فرزقهما على الله يهب من يشاء بغير حساب ، حقيقة ملايين الأنصار الذين تبعوا الإمام عبد الرحمن ، إنما لتحقيق أهداف كبيرة بعضها تحدثنا عنها في أكثر من مجال .

أما الذين أوردوا التهمة للإمام عبد الرحمن بأنه مات ثرياً ولم يطبق شرع الله وكذلك التهمة نفسها للإمامين الصديق والهادى الذين خلفوه فأقول باختصار شديد وبالنطاق نفسه أعلاه وبالتواريخ نفسها أعلاه ، لم تكن السلطات على عهد الاحتلال حتى ١٩٥٦/١/١ منوحة للإمام عبد الرحمن ولا بعدها حتى يطبق شرع الله ، وكذلك لم تكن للإمام الصديق حتى وفاته أيام عبود لتطبيق شرع الله . أما على عهد الديمقراطية الثانية ٦٤ - ١٩٦٩ فقد كان الائتلاف الحاكم بين حزب الأمة والاتحادي الديمقراطي يسعى جهده لوضع مسودة لدستور لا يتعارض مع شرع الله ، وعموماً لتطبيق شرع الله ومحاربة الشيوعية استشهد الإمام الهادى ، وأن أمر تطبيق الشريعة الإسلامية في السودان ، لا يكون بالبساطة التي يتصورها الكثيرون ، فهناك عوائق عملية كثيرة لابد من تجاوزها حتى نعمل لشرع الله ، وما الذى بين أيدينا منذ أيلول (سبتمبر) ١٩٨٣ وحتى اليوم ليس بخاف على أحد ، فخافوا الله في سيرة الرجل .

أما حديثك عن الأسباب التى تسهم فى تكريس الأنصار فى تلاوة راتب الإمام المهدى وعدم توسيع دائرة الاطلاع للفقه والأحاديث حتى يتمكن المسلم الأنصارى من توسيع مداركه الدينية فى المذاهب المختلفة بدلاً من القوقة فى كتيب الراتب الذى يحمل صوراً لزعماء عائلة المهدى ومع قليل من الآيات والدعوات المكررة كما قلت .

فيبدو أنك نسفت كل كيان الأنصار من جذوره واتهمت الإمام المهدى

أبا الثورة والوطنية الحديثة بصاحب كثيب الراتب الذي يحتوى كما قلت على قليل من الآيات والدعوات المكررة ، وكلمة تكرار تعنى السماحة ، وإذا استبحث لنفسك استعمال تلك التغاير عن أى الثورة وأى الوطنية السودانية الحديثة ، فيبون أمام ذلك انتقاداتك للإمام عبد الرحمن وخليفته الصديق والهادى من بعده . وعموماً لا تستغرب لاستعمالك تلك الكلمات ، فلقد وصفت الإمام المهدى في بعض صفحاتك ، بالتأثير الاجتماعى ، وهذه هي أول المرات التى نسمع وصف الإمام المهدى بالتأثير الاجتماعى فكل مؤرخى الشرق والغرب مسيحيوهم وملموهم وصفوه بالتأثير السودانى الإسلامى .

وراتب الإمام المهدى ليس هو كثيب من تأليف الإمام المهدى به قليل من الآيات والدعوات المتكررة فقط ، إنما هو بلغة العصر كان يمثل المفستو الذى ارتكزت عليه الثورة الوطنية الأم ، وهو في جمله مجموعة من الأدعية أو الأوراد والآيات القرآنية جمعها الإمام المهدى ورتبها بأسلوبه لحث المجاهد والمناضل السودانى على الجهاد في سبيل الله وإحياء كلمته . فقد حرص الإمام المهدى في كل منشوراته الحقيقة والتي كان يبعث بها بين الحين والأخر إلى قيادات الثورة في مختلف أنحاء البلاد ، بأن يحرصوا على قراءة الراتب مع حزب من القرآن . فقد كان يعتقد في ذلك تطميناً لقلوب الجماهير . وإذا كان ذلك هو توجيه أى الثوار فلا أعتقد أن هناك عيباً في الإبقاء على ذلك التقليد .

ولعله السائل فقوات الاحتلال البريطانى ، منعت جماهير الأنصار من حيازة الراتب أو قرائته ، ومن يوجد في حوزته راتب كان يعاقب بالجلد والسجن ، هكذا يتضح إلى أى مدى تجد قراءة الراتب مكانة خاصة في التراث الأنصارى .

وقراءة الراتب لاتمنع المسلم الأنصارى ، من توسيع مداركه الدينية في المذاهب المختلفة ، فالراتب لا يقوم مقام المذاهب ، وعموماً قراءة الأوراد ليست محجورة على المسلمين فالشاذلة يقرأون أوراد سيدى أى الحسن الشاذلى . والتتجانية يقرأون حزب السيف لسيد حمد التجانى الملا إبراهيم ، من دون أن تحجب تلك الأوراد اطلاعهم على المذاهب المختلفة .

جواب الدكتور الصادق المهدى على السؤال الثاني لإبراهيم الغرباوي

لماذا لم تسارع دائرة المهدى رغم الثروات التى بحوزتها في تطوير الجزيرة أبا وإقامة المدارس والمعاهد الدينية علماً أن الأنصار أكثر الفئات الاجتماعية حباً للدين وأكثر شغفاً للعلم رغم أن الجزيرة أبا كانت تعيش في وحل الأمية ، ولماذا حاولت عائلة المهدى الاستحواذ على أموال دائرة المهدى علماً أن بعض الأموال الاستثمارية هي محصلة جهد وعرق الأنصار القراء الذين عملوا بسخاء غريب في قطع الأشجار والأخشاب التي استعملت في الكمانات الطوبية لإيفاء المقاولات في عصر الحكم الثنائى حيث تعتبر بداية القطرة في ثراء بيت المهدى الثنائى السودانى الاجتماعى الذى لم يترك أى أموال ورثة لأبنائه حيث مات فقيراً عفيفاً بينما عاش أحفاده وأبناؤه في تنعم ورفاهية .

والطرف الثانى من قاعدة تجميع المال لدائرة المهدى هي من أموال الزكاة والصدقات التي تجمع من أغنىاء الأنصار في غرب السودان المعطاء الذى كان نصيحة المزيد من التجاهل والفقر والأمية ، ولم تحاول دائرة المهدى وحزب الأمة في القضاء على فقر الأنصار خاصة المقimين في الجزيرة أبا والمشاريع الزراعية التابعة لللدائرة ؟

الجواب : نحن نقول للغرباوي ، لا تحاول من خلال أسفلتك العفوية أن تعطى انطباعاً عن تجمعات الأنصار ، وكأنها تعيش في وحل من اجهل بسبب زعامة الإمام عبد الرحمن المهدى لها ، فمن المعلوم أنه كان من سياسة عهد الاحتلال الانجليزى حتى الأربعينيات ، التضييق على تجمعات الأنصار واضطهادها وحرمانها من فرص التعليم وبالتالي حرمانها من التوظيف والمشاركة في وظائف الإدارة المفتوحة للسودانيين وقتها ، وهي حقيقة لا يختلف عليها اثنان

ملمان بتفاصيل توجهات وسياسات الاحتلال في السودان ، ولقد انعكست تلك الحقيقة سلباً بعدم الكوادر بقدر كافٍ من خلفيات أنصارية تؤثر في صنع القرار ، لذلك كانت ديار الأنصار في السودان تحظى بخدمات هامشية لا تسمن ولا تغنى من جوع .

أما على عهد الاستقلال والتحرير الوطني ، فقد واكبت فرص التعليم ولا أقول بالصورة المثلث ، إنما بصورة عملية تطلعات مناطق الأنصار ، فقد نال الغرب ، في خطوات سريعة خدمات لا يأس بها في التعليم وتوفير المياه .. إلخ ، وانعكس ذلك على التمثيل النباني الذي توضحه آخر إحصائية لبرلمان ١٩٨٦ ، ودونك كشف النواب ومؤهلاتهم ، فلا تهجير للنواب بسبب الجهل ولا وحل من الأمية كما تزعم ، فقائمة نواب حزب الأمة كل دوائرهم الانتخابية تعبر عن مستوى رفيع في المؤهلات العلمية ومن الفهم والتعامل العلمي مع متطلبات الحياة .

أما الجزيرة أبا التي تتحدث عنها قائلاً أنها «تحول في الجهل» فهي كمدينة صغيرة مقارنة بمشيلاتها من المدن السودانية تعتبر في مستوى لا يأس به من فرص التعليم ، ففيها ما لا يقل عن ١٠ مدارس من كل مستويات التعليم الابتدائي والثانوي العام والعالي والفنى ، ولعله من المثير للاهتمام أن الجزيرة أبا ذاتاً وضع مميز يضعها في المقدمة فهي مهد الدعوة ، وأرض الثورة ، وهي النقطة التي انطلقت منها رايات التحرير غرباً ثم انعطفت شرقاً حتى سقطت الخرطوم ، وسقط الحكم التركي وتحرر السودان ، كذلك كانت الجزيرة أبا أرض الميعاد التي تجمع فيها أبناء وأحفاد الثوار ليبدأوا ثورة أخرى بمعاهيم جديدة فأسسوا تحت رياادة الإمام عبد الرحمن تجمعاً اقتصادياً قوياً وفر كل المال الذي طلبته الحركة الاستقلالية عبر دائرة المهدى لتحقيق الاستقلال للوطن ، وهو محمود اشتراك فيه مع المهاجرين الأنصار الإمام عبد الرحمن وذووه بأيديهم فحسّوا وزرعوا سوية يداً واحدة لتحقيق الأهداف ، ولم يحفظ الإمام عبد الرحمن المال لنفسه كما تزعم ، فقد صرف ذلك المال من دون بخل أو أناانية لتحقيق الفكرة والمدف اللذين أذنا بجمعه ، لقد كان الأبناء والأحفاد على وعد

- ٨٠ -

بأن يعيدوا للسودان استقلاله ومجده الذي طاح على جبل كرري ، ليس بالثورة المسلحة مثل الأجداد ، إنما بالعمل السياسي المسموح به إبان عهد الاحتلال ، وقد فسرت في مقالات السابقة الأسباب التي أملت التغيير في النهج ، وفي كلتا الحالتين كان التحرير والاستقلال الوطني هدفاً تحقق .

لم يكن الإمام عبد الرحمن إقطاعياً بالسوط في يده وعييد الأرض من حوله وسجونه ملأى بالمتربدين عن طاعة إقطاعاه ، كذلك لم يعرف عن الإمام عبد الرحمن « التكويش » على المال الذي وفرته الجزيرة أبا والانزواء به لنفسه من دون اليفاء بالالتزامات التي أذنت بتدبيره في المقام الأول ، إنما كان شخصية مؤدبه ، مرنة في تعاملها مع البشر ، كريماً في عطائه وكان بيته لسد الجوع وقشاشاً للدموع وهي خصال تعكس مقاييس زمانها صورة وضاءة للمواطن الصالح ، فاترك الإمام عبد الرحمن والإمام الهادي لزمانهما . أما مقاييس زمانك فلونك نحن .

أما سؤال عن أين ذهبت أموال دائرة المهدى ، أياً كانت أصولها ، فأقول لك بالحزم كله وفي صدق ودون مواربة :

ذهبت لدعم مسيرة الجبهة الاستقلالية وحزب الأمة لتحقيق استقلال السودان ، وكذلك لدعم المؤسسات التعليمية والاجتماعية المتعددة ، وحينما جاوز الإمام عبد الرحمن السبعين من العمر ، نال السودان استقلاله عام ١٩٥٦ وتحقق بذلك أكبر التزام قومي وأدلى ألزم به نفسه والمهاجرين للجزيرة أبا فلم يعد للعمال مكان من سؤال ، وعندما توفى الإمام عبد الرحمن عن خمسة وسبعين عاماً ، كانت كل أصول دائرة المهدى مرهونة للبنوك ، لتغطية العجز المالي في إدارة أعمالها التجارية لخدمة مسيرة الاستقلال ، وبخلول عام ١٩٦٠ كانت دائرة المهدى بين مد وجزر في الإدارة ومطالبة الدائنين حتى استولى عليها جعفر ثميري بعد معركة الجزيرة أبا العسكرية ١٩٧٠ ، ومن وقتها لم يعد للدائرة نفوذ أو مال يصرف حتى في إعاشه مساهمتها إعاشه مريحة مما حدا بهم إلى إيجاد مصادر أخرى لدخولهم ، ليتمكنوا من العيش الكريم ،

بعضهم هجر الدائرة لإيجاد فرص أحسن أو انشغل بالسياسة، حقيقة في الفترة ما بين ١٩٦٠ - ١٩٧٠ ، لم تلعب أصول دائرة المهدى دوراً في أى مساعدات سياسية لحزب الأمة أو غيره ، ويبدو أن أمرها الحالى انتهى ب نهاية الإمام عبد الرحمن المهدى وإنجاز السودان استقلاله ، فقد كانت خير دعم له لمواجهة الدعم المصرى لمسيرة وحدة وادى النيل .

أما ما تم تقسيمه من أصول دائرة المهدى عام ١٩٨٤ فهو هدية التضخم المالى الذى لحق بالسودان ، وبعد المصالحة عام ١٩٧٧ وبعد المراجعة والمحاج والمنطق مع جعفر ثيرى وافق على إرجاع الأصول بعد خصم مدینونية البنوك التى آلت للحكومة بعد التأمين ، وتم ذلك التقسيم لأكثر من ١٠٣ (مائة وثلاثة) وريث من أبناء وبنات وأحفاد الإمام عبد الرحمن المهدى ، وفي تقديرى أن ما ناله أكبر الورثة أسهماً من أصول لم يعد يساوى شيئاً مقارنة بالثراء الذى نراه اليوم على وجوه سودانية كثيرة .

أما الزكاة ، فقد كانت لها مكاتب وإدارة منفصلة ، خاصة في الجزيرة أبا ولم تخلط أوراقها بأوراق دائرة المهدى في أى مرحلة من تطويرها فلكل مجرأه . أما أوجه الصرف فقد كانت حسب الآية الكريمة *إِنَّمَا الصَّدَقَاتُ لِلْفَقَرَاءِ وَالْمَسَاكِينِ وَالْعَالَمِينَ عَلَيْهَا وَالْمُؤْلَفَةِ قَلُوبُهُمْ وَفِي الرِّقَابِ وَالْغَارِمِينَ وَفِي سَبِيلِ اللَّهِ وَابْنِ السَّبِيلِ* ، فريضة من الله والله عالم حكيم *صَدِقَ اللَّهُ الْعَظِيمُ* الآية ٦٠ سورة التوبة .

أما مشاريع دائرة المهدى على النيلين الأزرق والأبيض والتى وفرت كل ذلك المال وهو مال الفداء فقد أصابها على نهاية الخمسينيات وبداية الستينيات ، ضمن ما أصاب المشاريع الزراعية الأخرى في المنطقة ، تدهور في الإنتاج مما تسبب في ظروف صعبة لإدارتها وعولج أمرها ضمن قائمة المشاريع الخاصة حيث آلت عام ١٩٦٧ وحتى اليوم إلى مؤسسة الإصلاح الزراعى ، فال يوم لا توجد في السودان مشاريع زراعية خاصة على غرار الإقطاع الذى تزعم لآل المهدى أو لغيرهم ، وما زالت حكومة السودان تفك فى الكيفية التي تعامل بها أمر تلك المشاريع .

أما أراضي بعض المشاريع الزراعية التي تملكها دائرة المهدى في النيل الأبيض والجزيرة المروية بما فيها أراضي مشروع الجزيرة أبا، فهى لا تزال تزرع بواسطة المزارعين تحت إدارة الإصلاح الزراعى، ولم تسبب ملكية الأراضى عائقاً فى استئثار الأرض زراعياً، فأهل الأرض لم يطالبوا بأراضيهم أو حتى دفع إيجار على استئثارها. حقيقة الأمر كل تلك الأراضى بما فيها أراضي مشروع الجزيرة أبا لم تشملها تقسيمات ممتلكات دائرة المهدى الأخيرة، فقد أبقى أبناء وبنات الإمام عبد الرحمن كل أراضى الجزيرة أبا خارج دائرة التقسيم، فهم جميعاً متفقون أن تلك الأراضى لابد أن تستثمر لمصلحة الجميع، وما زال الأمر يخضع للنقاش فى الأسلوب الأمثل الذى تستثمر به تلك الأراضى لنفعة سكان الجزيرة أبا الذين يشكل آل المهدى عصباً قوياً بينهم، فإن كان لك رأى نافع وتصور عملىجاد، من دون طرد آل المهدى من الجزيرة أبا، فتكرم بالرد.

السؤال الثالث وال السادس وجوابهما بين إبراهيم الغرباوي والدكتور صادق

ما هي أسباب الخلاف السياسي العميق بين الصادق المهدي والإمام
الهادى عبد الرحمن (والد كاتب المذكرات)؟

ولماذا قاوم الإمام الهادى سياسة الصادق المهدى التطويرية وتحديث
حزب الأمة بعزيز من الحث على تعليم أبناء الأنصار وردم الهوة الساحقة بين
القمة المتعلمة في الجامعات البريطانية والقاعدة الأمية المفعمة في وحل التبعية
المطلقة؟

لماذا اعتمد حزب الأمة على بعض الشخصيات اللامعة مثل محمد أحمد
محجوب علماً بأنه لم يكن يوماً يؤمن بالمهديوية والأنصارية بل يعتبرها تحفه من
آثار الماضي. أم كانت من نتائج وإفرازات المحافظة على القيادة السياسية
السودانية تحت كل مسمى؟

وفيما يلي جواب الدكتور صادق المهدي على السؤالين :

وبسؤالك عن خلافات حزب الأمة بين الصادق المهدي والإمام الهادى ،
فقد لمست موطن الأذى الحقيقى الذى أصاب كيان الأنصار وذراعه السياسى
حزب الأمة على عهد الديمقراطية الثانية ، فقد وصل الخلاف ذروته فى
عام ١٩٦٧ عندما خاض الحزب الانتخابات العامة منقسمًا على نفسه ، وعلى
أسره وتجمعاته الاجتماعية المعروفة .

وما غاب عنك أن تقوله هو أن انقسام حزب الأمة عجل ب نهاية
الديمقراطية الثانية وجعلها لقمة سائغة لمدبرى انقلاب مايو ١٩٦٩ . فقد
جنيحت في غير موضوعية إلى الأشخاص والمسائل الشخصية من دون النفوذ
إلى النتائج والأداء العام الذى بهم الحادبين على المصلحة العامة ، وإن شئت

فاسترسل في قراءة الصفحات التالية وسوف تجد الأسباب الحقيقة لذلك الانقسام وسوف تعرف أكانت أسباب ذلك الانقسام هي وقوف الإمام الهادى ضد التوجهات التطويرية (كما تدعى)، التي قادها السيد الصادق ، أم أنها طموح الأشخاص ملء منصب رئيس الوزراء . فكما هو واضح أيد الإمام الهادى تشكيل المكتب السياسي لحزب الأمة برئاسة السيد الصادق رغم اعتراض الكثيرين على الأسس التي يوجها تم ذلك التشكيل ، كذلك يتضح لك أن الإمام الهادى حاول جهده إثناء السيد الصادق عن المنافسة لمنصب رئيس الوزراء وإعطاء جهده لتطوير الحزب حتى يقوى عوده وحتى ينال السيد الصادق التجربة الازمة على ذلك المنصب ، لكن إصرار السيد الصادق ملء المنصب من دون البقاء لتطوير الحزب كما تزعم هو الذي فجر الخلاف .

أما محمد أحمد محجوب فسوف ترى من سيرته الذاتية القصيرة في الصفحات القادمة أنه ينتهي إلى مجموعة الاستقلاليين وهي الشعرة الرفيعة التي حاول الإمام عبد الرحمن إمساكه بها حتى سلم أخيراً بالبقاء في أروقة حزب الأمة ، فهو ليس غريباً عن الحزب والكيان كما تزعم ، فسوف يكون ردى على ذلك السؤال بالتحقيق في الإنجازات والإخفاقات التي لازمت كيان الأنصار باعتبار أن الخلاف من أكبر الإخفاقات التي واجهت كيان الأنصار .

كان وما زال لكيان الأنصار هموم وتحديات ، بعضها تجاوزه الزمن بنجاحات باهرة ، وبعضها أخفق فيه وما زال بعضها ماثلاً باللحاج شديد حتى كتابة هذه السطور ينتظر الحسم ، فتارikhياً ، وبعد انتصار قيادته الثورية على الخديويون في عام ١٨٨٥ وتحرير السودان من سطوتهم وجبروتهم، عاود الخديويون الكرة ، مدعومين بالإنجليز ، وأسقطوا الدولة الفتية التي أقامها الثوار في معركة كرري في صبيحة ٢ أيلول (سبتمبر) ١٨٩٨ ، وبتلك الهزيمة فقد السودان استقلاله مرة أخرى وانزلق تحت حكم الاحتلال ، وأسقط الأمر كله في تحد واضح لأبناء وأحفاد الثوار أن يتحينوا الفرص لاستعادة الاستقلال المسلوب .

الإنجازات :

(أ) تحقيق الاستقلال الوطني :

مع تطوير الحركة الوطنية السودانية كانت المطالبة والوقف على الاستقلال ، من دون دعوة وحدة وادى النيل ، هي الخيار الطبيعي لكيان الأنصار ، ذلك لأن دعوة وحدة وادى النيل تحت عرش الفاروق المفدى ملك مصر والسودان تعبر عن دعوة رفعتها الحركة الوطنية المصرية وهي تناقض في كل ركائزها كل ما مات من أجله ثوار الكيان في نهاية القرن الماضي في درء السيطرة الخديوية وتبعاتها في السودان . لقد شكلت المطالبة بالاستقلال تحدياً أرهق تحقيقه مقدرات قيادات الكيان السياسية واستنزف مقدراتهم المالية والجسدية حتى استطاعت في رجاحة واضحة أن تتحرك تحرکها الناجر في اللحظات الأخيرة لقلب موازين القوى السياسية لصالح دعوة الاستقلال التي انمازت لها القوى الوطنية السودانية بالإجماع في ١٩٥٦/١/١ ، وهو نجاح للكيان فاق كل النجاحات وله تفاصيل كثيرة ومثيرة لا يسمح المجال لسردها هنا .

(ب) في تطور آخر للنجاحات الباهرة ، أفرزت مسيرة المطالبة بالاستقلال الوطني عن دولتي الحكم الثنائي ، عبر سنوات الاحتلال تأسيس وتنظيم حزب الأمة ونموه كجناح سياسي للكيان ، قبل عبره الكيان التعامل مع أفكار وآراء ومارسات لم يكن ميسوراً له قبولها أو إللام بها أو التعرف عليها حينما أسسه الثوار على نهاية القرن المجري الماضي ، فقد تنسم الكيان عبر حزب الأمة رياح التغيير الوافدة من الغرب بقبول الديمقراطية الغربية كأساس للحكم في السودان ، وبذلك قبل التعايش مع الآخرين ، وقبل أيضاً فكرة التعديلية الحزبية المبنية على الأهداف والأفكار المتباينة ، ومع ذلك احتفظ الكيان بكثير من الموروث من آدابه العامة وتقاليده الجهادية التي طفت إلى السطح في أكثر من موقف في لحظات حرجة من سيرته السياسية .

لقد خطط ونظر مؤسسو حزب الأمة بريادة ورعاية الإمام عبد الرحمن

- ٨٦ -

المهدى أنس وتقاليد ، بعضها مكتوب وبعضها متعارف عليه ، للتعامل بين اللائقة السياسية ممثلة في الحزب وكيان الأنصار ، فمزجوا وأخلوا أيسر ما في الاثنين للتوافق المرغوب في العمل السياسي العام ورفعوا كما ذكرت في أكثر من مقال كل أنصاري حزب أمة وليس كل حزب أمة أنصاري ، حتى لا يُطْنَ أَنْ حزب الأمة حكر للأنصار وحدهم ، رغم اعتقاده كلياً على وجودهم المكثف والأساسي في صفوته . لقد مهد ذلك الشعار الطريق سهلاً لعدد من الأعراق والكيانات السودانية والطرق الصوفية للانضمام لحزب الأمة ولمسيرة الاستقلال التي قادها ، كما قفتح المجال لأعلام بارزين وملوك وفلكيين قياديين أثروا مسيرة الاستقلال بخبطط وأفكار وآراء وجدت في الحزب منبراً للتعبير عن نفسها وفي أدائه العام نهجاً لتحقيقها . ولقد تبأ نفر غير قليل من أولئك المؤسسين المكانات القيادية المرموقة التي تتناسب ومقدراتهم من دون تحيز لعرق أو كيان أو أسرة .

لقد لعبت شخصية الإمام عبد الرحمن دوراً أساسياً في تهيئة المناخ المناسب لتلك الإنجازات ، فقد عرف سيادته مقدرات الرجال وطموحاتهم وفتح الطريق واسعاً أمام تلك الطموحات واستطاع أن يجمع حوله أسوداً أقوية قادوا السودان في نهاية المطاف لنيل استقلاله ، وحقق عبر الأجهزة والمشاورات الخاصة والعامة لكل طامع طموحه حسب مقدراته المشروعة ، فوزع الأدوار من دون الاستجابة لضغوط الجماعات أو الأسر وخاصة أسرته لما لها من مكان خاص في كيان الأنصار ، وبذلك النهج والأسلوب كان حزب الأمة مجموعة متجانسة وأسرة واحدة حسده عليها الكثيرون .

لقد نقل لنا الكثيرون عن السلف أن الإمام عبد الرحمن رفض طلباً لعدد من أهله وبعض شيوخ الأنصار حينما طلبوا منه بعد انتخابات ١٩٥٧ ترشيح ابنه الصديق ، رئيس حزب الأمة آنذاك ليتولى رئاسة الوزارة عن حزب الأمة ، بدلاً من الأمير لای عبد الله بك خليل . فرفض الإمام عبد الرحمن اقتراحهم ذلك في حسم شديد وقال لهم عبد الله والصديق كلهم أبنائي ، ولم يدخل تلك الوزارة من أهله سوى الدكتور مأمون حسين شريف الذي عين وزيراً للصحة

- ٨٧ -

على عمر ناضج وتجربة ثرية ومؤهل علمي وشخص مكنته من تلك المكانة بين أقرانه في الحزب .

الإخفاقات :

لقد شهد حزب الأمة عبر تاريخه الوطني الطويل منذ أن تم إعلانه في عام ١٩٤٥ ، ثلاثة أحداث خطيرة كانت تهدف إلى شل حركته وتقسيم صفوفه - حتى يحول ذلك دون تحقيقه للأهداف الوطنية التي قام الحزب من أجلها .

المحاولة الأولى سنة ١٩٥١ :

ابتدأ الاستعمار البريطاني تلك المحاولة حين تم تأسيس الحزب الجمهوري الاشتراكي في عام ١٩٥١ كترياق مضاد لحزب الأمة وذلك من زعماء العشائر بل وبعض القيادات التاريخية أمثال الناظر بابو نمر الذي واجه التهديد من قبل الإدارة البريطانية بتقسيم نظارته إذا لم يتخل عن الوقوف بجانب حزب الأمة والإمام عبد الرحمن الذي تربى به صلة المصاهرة - فاضطر الناظر وبتوجيه من الإمام نفسه إلى مسايرتهم ، وكذلك واجه الناظر عبد الجبار حسين زكي الدين نفس الضغط - حدث كل ذلك عندما ألقى حزب الأمة القفاز في وجه حكومة السودان أندلاع بإصراره على إعلان الحكم الذاتي من داخل الجمعية التشريعية في منتصف عام ١٩٥١ - ومع أن الإدارة البريطانية التي فوجئت بالاقتراح سعت بكل الوسائل إلى تأجيل التصويت على ذلك الموضوع الخطير حينها وقف السكرتير الإداري في تلك الجلسة التاريخية يهدد بالثبور وعظائم الأمور إذا لم يسحب الحزب اقتراحته إلا أن النتيجة النهائية كانت إلى جانب رجال حزب الأمة الأشداء حيث جاءت ٣٩ إلى ٣٨ صوتاً بواقع صوت واحد مسجلين من خلال تلك المداولات التاريخية صفحات رائعة ومشرقية في تاريخ السودان الحديث إضافة إلى ذلك السجل الوطني الرائد لتنظيم الأنصار - وهكذا لم تجد الإدارة البريطانية إلا أن تعمل إحداث أساليب الانقسام والفتنة بعد أن تجاهلت في الوقت نفسه ما تخضت عنه تلك الجلسة ، ما جاء على لسان سكرتيرها الإداري بأن الوقت لم يحن بعد لتمليك السودانيين

- ٨٨ -

إرادتهم (الحكم الذاتي) وذلك أمر أدى في نهاية الأمر إلى تعريتهم وكشف نواياهم بل وإلى وحدة الفصائل السودانية ووقوفهم إلى جانب الاستقلال الذي قام حزب الأمة من أجله وخاض الإمام عبد الرحمن المهدى أشرس المعارك بأن يكون السودان للسودانيين .

محاولة الانقسام الثانية ١٩٥٧ (حزب التحرير الوطني)

إذا كانت عملية الانقسام الأولى في حزب الأمة. قد قامت بها الإدارة البريطانية فإننا نجد المحاولة الثانية قد جاءت هذه المرة من الطرف الآخر للحكم الثنائي - حيث قامت مصر بتشجيع أبناء الخليفة عبد الله لتأسيس حزب التحرير الوطني الذي اعتمد على أبناء الخليفة عبد الله التعايشي على حساب حزب الأمة ومع أن الانقسام الثاني لم يكن في خطورة الذي سبقه إلا أنها نجده قد جاء يحمل تناقضات القرن الماضي وإفرازات الصراع بين الخليفة عبد الله التعايشي والأشراف ، ومع بزوغ نجم الإمام عبد الرحمن في العشرينات وقيادته لكيان الأنصار بإجماع متنه ، والانخراط معظم أبناء الخليفة بالعمل في دوائر الحكومة وابتعادهم عن الساحة السياسية ليقوم حزب الأمة في منتصف الأربعينات دون أن يكون لأبناء الخليفة دور واضح في عملية تأسيسه وهذا قام بعضهم بالابتعاد عنه بل ومقاطعة انتخابات عام ١٩٥٣م على الرغم من الجهد الكبير الذي بذله الإمام عبد الرحمن لإقناعهم والانخراط معه ، وقد قام السيد عمر الخليفة عبد الله التعايشي أكبر أبناء الخليفة والذي كان يتلقى تعليمه في مصر بالتصدي مع نفر آخر من أبناء الخليفة لحزب الأمة وتمكنوا بتشجيع من الحكومة المصرية بإعلان حزب التحرير الوطني في عام ١٩٥٧ والذى أطلق عليه بعضهم (حزب الأمة القوى) والسعى لاستقطاب الأنصار بالدوائر في غرب السودان ، ولكن أبناء الأنصار كانوا قد ارتبطوا بالبيعة للإمام عبد الرحمن ونتيجة لذلك واجهت قيادات الحزب الجديدة (حزب التحرير) هزيمة نكراء في انتخابات ١٩٥٧م وذلك بعد أن اضطر الإمام عبد الرحمن لمواجهة مواجهة حاسمة - ووجه على سبيل المثال ابنه المهدى بالترشيح ضد ابن أخيه السيد محمد المهدى الخليفة في دائرة كوشى الجنوبية - ليحرز المهدى المهدى

- ٨٩ -

انتصاراً كبيراً على منافسه مثل ما لحقت بعناصر الحزب الأخرى هزيمة نكراء في كافة أنحاء السودان ، ويدرك أن حزب التحرير قام بالتنسيق مع الحزب الوطني الاتحادي ضد حزب الأمة وحزب الشعب الديمقراطي الذي تم إثر لقاء السيدين الشهير .

وعقب وفاة الإمام عبد الرحمن ١٩٥٩ قام الإمام الصديق برفع شعار تمسك وتوحيد كيان الأنصار ليتجاوز أبناء الخليفة للانخراط من جديد في حزب الأمة وحل حزبهم الوليد في مصالحة كاملة فتلانت الخلافات تقريراً وشارك أبناء الخليفة في حكومات حزب الأمة بعد ذلك فتم تعيين السيد داؤد الخليفة في مجلس السيادة وتم تعيين السيد محمد داؤد الخليفة وزيراً للدفاع .

★ راجع :

- رسالة الماجستير الفاتح عبد السلام
عن حزب الأمة ٥٤ - ١٩٦٩
جامعة الخرطوم مارس ١٩٧٩

- حركة الوطنيين في السودان
edit by محسن عبد القادر حاج الصاف
by The instituti j A F صفحات ١٣٩ - ١٥٤
صلب في معهد السراسات الأفريقية والأسيوية جامعة الخرطوم ١٩٨٩ م
مطبعة جامعة الخرطوم

المحاولة الثالثة :

ومع أن المحاولة الأولى والثانية كانت قد قامت بهما دولتا الحكم الثنائي متمثلة في بريطانيا ومصر إلا أن أحضر إخفاق واجه الكيان هو انقسام حزب الأمة على عهد الديمقراطية الثانية (١٩٦٤ - ١٩٦٩) ، التي تلت سقوط الحكم العسكري الأول برئاسة الفريق إبراهيم عبود ، وهو انقسام عانى منه القواعد والقيادات فهز أوصالها وأفقدتها التوازن والقامة الملودة التي كانوا

- ٩٠ -

يتباهون بها ، فدخل الخلاف كل منزل ، وزعزع كل أسرة ، وكلف تجاوزه الكثير ، وترك آلام جراحات مازال بعضها ينزف .

فمن المعروف تاريخياً أن الفريق إبراهيم عبود استولى على السلطة صبيحة ١٧ تشرين الثاني (نوفمبر) ١٩٥٨ ، فحل الأحزاب وحظر نشاطها السياسي ، وانتقل الإمام عبد الرحمن إلى جوار ربه في آذار (مارس) ١٩٥٩ ، وخلفه في هدوء كامل ابنه الأكبر الصديق كإمام للأنصار وزعيم للكيان ، وانتقل الإمام الصديق إلى جوار ربه مبكياً على شبابه في تشرين الأول (أكتوبر) ١٩٦١ ، وترك وهو على فراش موته وصيته على مسمع من الحاضرين تقول في كلمات واضحة أنه يوصي بتشكيل مجلس للأسرة من أحفاد المهدى «عبد الله الفاضل المهدى ، والهادى عبد الرحمن المهدى ، ويحيى عبد الرحمن المهدى ، وأحمد عبد الرحمن المهدى ، والصادق الصديق المهدى» على أن يختاروا من بينهم إماماً للأنصار ، وعملاً بتلك الوصية ، اختار المعينون بالأمر ، في داخل قبة الإمام المهدى وقبل مواراة الثرى جثمان الإمام الصديق ، اختاروا الهادى عبد الرحمن المهدى ليكون إماماً للأنصار ، وبايده واحداً تلو الآخر ، ثم أعلنا اسمه على جموع الأنصار المنتظرة في قبة الإمام المهدى ، فأيد الحاضرون ذلك الاختيار وألحقوه ببيعة جماعية من دون تحفظ أو شرط فأصبح الإمام الهادى بحكم العرف والتقليد زعيماً للحزب والكيان وله شورى ملزمة إلزام البيعة المعقدة بينهم وفقها .

وظل الحال على ما هو عليه حتى سقوط حكم عبود في ثورة شعبية في ٢١ تشرين الأول (أكتوبر) ١٩٦٤ ، فسمح للأحزاب بمعاودة نشاطها السياسي لتهيئة البلاد لانتخابات ديمقراطية عامة ، وشكل حزب الأمة برعاية الإمام الهادى المهدى مكتباً سياسياً برئاسة السيد الصادق المهدى ، وكانت الانتخابات ونال الحزب أكبر كتلة برلمانية سمحت له بالمناورة على القدر المعلى في حكومة ائتلافية بينه وبين الحزب الاتحادي الديمقراطي ، فكانت رئاسة الوزارة من نصيبه ملأها بعد التشاور بين هيئاته وقياداته المختلفة بالسيد محمد أحمد مجحوب الحامى ، الشخصية السودانية المعروفة .

قناعات الإمام المادي المهدى :

كان للإمام المهدى قناعات متعددة أهمها قناعته التامة بأن البيعة العامة التي انعقدت له بالإمامية من أبناء المهدى وجموع الأنصار في قبة الإمام المهدى عند تشيع جثمان الإمام الصديق في تشرين الأول (أكتوبر) ١٩٦١ ، وضعت له حق السبق في الزعامة الدينية والسياسية لكيان الأنصار وحزب الأمة ، وبها يكون له حق الرعاية التي هي بمقام الصداررة والرئاسة الحقيقة من المقامين ، أما رئاسة حزب الأمة ، فهي رئاسة تنظيمية لا تترفع لتنافس زعامته وقيادته للكيان والحزب ، وعليه ، فله حق شورى ، مadam لم يطالب لنفسه بشيء ، يجب اعتبارها والتفاكر حولها والتوجه بها في القضايا المصيرية التي تهم مسيرة الحزب والكيان ، وهو تقليد معمول به ، وحظى به الإمام السابقان (عبد الرحمن والصديق) من قبله ، فهو سلفى على نهج أبيه وأخيه عندما كان الأول إماماً للأنصار والثانى رئيساً لحزب الأمة ، فقد اكتفى أوشك بالزعامة الدينية السياسية ونأوا بأنفسهم عن المنافسة المباشرة على المناصب التنفيذية الحكومية التي تحملها انتصارات الحزب ، وعندما تشتد المنافسة على وضع فلهم بحق الرعاية ، دور تويفيقه يلعبونه لتفادي الفرقنة والخلاف ، وعلى بداية الديمقراطية . الثانية ، مارس الإمام المهدى ذلك الدور التوفيقى حينما أفتى في نزاع تكوين المكتب السياسي للحزب بمبادرة رئاسة السيد الصادق المهدى ، وتأييدها مع إدخال بعض التعديلات والشخصيات ، رغم الاعتراض الشديد من كثريين على عدم ديمقراطية ذلك التكوين والمطالبة بعرض الأمر كله على مؤتمر الحزب الذى كان مائلاً للانعقاد وقتها ليفصل فيه ، ومع ذلك قبل الجميع بتوجيهه ، كذلك ترك أمر اختيار مرشحى الحزب فى الانتخابات العامة لذلك المكتب ولم يفرض مرشحاً بعينه ، كما قبل فى تقليدية تامة ، بعد ظهور نتائج الانتخابات العامة ، على أن يقوم سياسيو الحزب بتشكيل حكومتهم بالأسلوب الذى يرضونه مع الحزب الحليف ، ولم يفرض شخصاً بعينه ، فهو لم يفرض أو يرشح محمد أحمد محجوب لرئاسة الوزارة وقتها ، فقد تم ذلك الاختيار فى موضوعية تامة فى حضور كل زعماء حزب الأمة حسناً للتنافس الحاد الذى كان ملماً به

من وراء الكواليس بينهم ، وهو اختيار تم من دون شرط مسبق بالتخلي عن المنصب للسيد الصادق حين دخوله البرلمان .

وعلى قرابة العام من رئاسة السيد محمد أحمد محجوب للحكومة ، أكمل السيد الصادق ثلاثة عاماً من عمره ، وهي السن القانونية التي مكنته له دخول البرلمان ، من ثم بدأت تحركات خطط لها من مجموعة من بعض برلماني حزب الأمة لتنحية محمد أحمد محجوب من رئاسة الوزارة واستبداله بالسيد الصادق ، فقد اتهم أولئك النفر حكومة السيد محجوب بالفشل ، ثم شكروا في ولائه للحزب والكيان ، وهو بعض ما سقط في سؤالك ، فوصفوه بعابر السبيل الذي لا يطاق سلوكه الاجتماعي أو أسلوب حياته سلوك قيادات الأنصار ، ووصل الأمر إلى طريق مسدود برفض الإمام المادي قبول مبدأ تنحي محمد أحمد محجوب واستبداله بالسيد الصادق المادي ، الذي كان يظنه بواقع الأمور المعاشرة والممارسة صغيراً في سنه وتنقصه التجربة لتحمل المسؤولية التي يصبو إليها ، فلا يعقل أن يبدأ السيد الصادق حياته العملية والسياسية بوظيفة رئيس الوزراء ، فهناك متسع من الوقت لتلبية تلك التمימות في المستقبل ، كذلك كان يرى أن الظروف التي أدت إلى اختيار محمد أحمد محجوب لرئاسة الوزارة ما زالت قائمة ، فلم تطل الأزمات السياسية أو الكوارث والنكبات ما يحتم مراجعة سياسية كاملة للموقف ، فدخول السيد الصادق لم يأت بظرف جديد يوجب الإلحاح الشديد بالمراجعة والتغيير ، وعليه ، وهو بحق الرعاية وتفادياً للفرقة والشتات يتطلب من النواب الذين ينادون بالتغيير التخلص من تلك الدعوة وقتها ، وذلك بطلب من الهيئة البرلمانية أن تمدد عمر حكومة محمد أحمد محجوب To Renew The Lease for the Govt. على حد تعبيره باللغة الإنجليزية ، ومع ذلك أيدت أغلبية الهيئة البرلمانية للحزب تنحي محمد أحمد محجوب لمصلحة السيد الصادق ، مما اعتبره الإمام المادي خروجاً على المأثور وإنحيازاً عاطفياً يصعب تبريره ، فلو المحاذت الهيئة البرلمانية لأى من سياسي حزب الأمة الخضراء أمثال عبد الله نقد الله أو أمين النوم أو حسن محجوب مصطفى خياراً على محمد أحمد محجوب لقصوره لوجود ذلك الإنحياز

القبول منه ، أما الانحياز لابن أخيه بالصورة التي شهدتها ، فقد خلقت في ذهنه أكثر من علامة استفهام . وقال ساعتها أن الإمامة هي للشوري والتوفيق وذلك من نهج الإسلام ، وهي تسبق عملياً إذا كانت الأمور ت Prism في مثل الحديث الذي بين أيديهم بمواجهات عنيفة وبالتصويت على نهج ديمقراطية ويستمستر ، عموماً وعكس ما أوردت في سؤالك كان الإمام المادي يظن أن هناك عملاً كبيراً يتضمن التحريم السيد الصادق في أروقة الحزب وذلك بإعادة بناء تنظيماته الهيكلية بعد التجميد الذي أصابها طول سنوات الحكم العسكري .

لم يكن الإمام المادي يتوقع أن ذلك الموقف التوفيقى الذى حاوله لتجنب المواجهة بين أعضاء حزبه سوف يثير عليه خلافاً سياسياً متند جنوره إلى انقسام شامل يتهم فيه بوأد الديمقراطية ويقارن بكسرى والبابا الذى يمنع صكوك الغفران لمن يشاء ، كما قال السيد الصادق المهدى في إحدى ندواته ، فقد سمع عن الإمام المادي مساء سقوط حكومة محمد أحمد محجوب « ديمقراطية من دون منطق لا تعنى شيئاً ، أنحن سائرون على طريق الزوال » .

وخلال هذه القول ، فالذى بدأ خلافاً داخل الهيئة البرلمانية لحزب الأمة على استمرارية محمد أحمد محجوب في رئاسة الوزارة شكل المادة الأساسية لخلافات حزب الأمة ، وهو خلاف لم يشهد مثله الكيان منذ هزيمة كبرى ١٨٩٨م ، هذا هو السبب الأساسى للخلاف يأخذ غرباوي ، أما محاولتك لتبرير ذلك الخلاف بغير ما هو مكتوب أعلاه ، فيعتبر نوعاً من الرتوش والبهارات تتجاوز قلب الأمر إلى أطرافه .

توجهات السيد الصادق المهدى :

أما السيد الصادق ومن وآله من سياسي حزب الأمة ، فقد رکزوا مجھوداتهم بعد انتفاضة ٢١ تشرين الأول (أكتوبر) ١٩٦٤ ، في التحركات السياسية وفي الحزب ومكاتبته السياسية والتنظيمية ، وبانتخاب السيد الصادق المهدى رئيساً للحزب بمبارة الإمام المادي ، أصبحوا يهيمنون على الأغلبيات المطلقة في أي أمر يعرض على مكاتب الحزب للإقرار بشأنه . وبذلك الشقة

والتجوّه بات في اعتقادهم الذي لا يقبلون جدلاً فيه، أن زعامة الحزب هي لرئيسه وأن قراراته تصدر عن مكتبه السياسي وهيئته البرلمانية، فقد ظلوا ساعتها أن الأمر كلّه أصبح بيدهم «إن شاعوا أبقوا وإن شاعوا أسقطوا» أي شخص في منصب تنفيذى باسم الحزب، فهم ليس بالضرورة يتطلّبون موافقة أو قبول الإمام لما يرون عمله مناسباً، و هكذا أوحّت تصرّفاتهم .

بذلك النهج ومن الناحية العملية، يكون أولئك النفر قد جردوا الإمام من أي دور فاعل في قرارات الحزب. السياسية، فبدأوا يعلنون في تلميحات وتصريحات أن الإمامة للرعاية الدينية فقط، بل تجاوز بعضهم الخدر عن ردود الفعل التي قد تنتج عن ذلك الاعتقاد ، فقالوها صراحة في تصريحات صحافية ، مما أغضب الإمام ومن والاه ، فأحاط الصراع حول رئاسة الحكومة بشكوك كبيرة وكثيرة عن البيانات الحقيقة لتلك المجموعة ، وعندما أصبح أمر الخلاف حقيقة ، كان لابد من بلورته في شعارات ، فلا يعقل أن يقال صرأعنا حول رئاسة الحكومة؛ لذلك بلور السيد الصادق ومن والاه بهجمهم وفلسفتهم في الخلاف على الإمام في المعانى التالية :

- ١ - إنهم يريدون أن يكون الحزب عصرياً بعيداً عن الرغایة التي وصفوها في أكثر من لقاء سياسي وقتها « بالكسرمية والبابوية » متناسين معنى الإمامة الإسلامية وضاربين بالبيعة عرض الحائط .
- ٢ - ثم إنهم كانوا يرون في الإمام الهادي طموحاً غير معلن وقتها للمنافسة في انتخابات رئاسة الجمهورية الإسلامية المقترحة ، مع أن ذلك حق مشروع بحكم مركزه كإمام للأنصار ، وتحسباً وتخوفاً من تربية الإمام الهادي الدينية والأنصارية وتعلّماته لأن يكون مرشحاً باسم الكيان والحزب لتلك الرئاسة ، وحديثه المتصل عن الجمهورية الإسلامية ، فإنهم ينأون بأنفسهم عن ذلك الموقف ولا يتعاطفون معه « انظر كتاب أمين التوم .. مواقف وذكريات الحركة الوطنية. السودانية صفحات ٢٤٧ - ٢٤٨ »، حقيقة استوقفتني تلك الصفحات كثيراً بعد الاطلاع عليها ، وتأملت في حيرة شديدة بعض التناقضات

التي تحيط بنا، فيينا نحن نباهي ونفاخر بتراثنا الإسلامي الثوري، نجد بعض كبار سياسيينا المخضرمين يتحفظون على إمام ذي ثقافة وتوجهات إسلامية، أضف إلى هذا أن الإمام المادى كان عضواً مؤسساً في حزب الأمة حين تأسيسه ١٩٤٥ ، وبالإضافة إلى عمله الميداني في الزراعة بالجزيرية أبا ، مارس مهامً سياسية كثيرة في تكوينات شباب الأنصار وأحداث حزب الأمة ، حيث شارك في كل الوفود التي كانت تجوب البلاد بالدعوة لمبادئه الاستقلالية ، وشارك في أحداث آذار (مارس) ١٩٥٤ وكان عضواً برلمانياً في برلمان ١٩٥٧ الذي حله الفريق عبود عن دائرة كوستي الجنوبي ، وصادم مع جموع الأنصار في أحداث المولد ١٩٦١ إبان الحكم العسكري ، وعندما عادت الديموقراطية لم يأت أي خطأً سياسياً أو تكتيكي يجعل بعض سياسي حزب الأمة يتحفظون أو ينقصون من البيعة التي انعقدت له ومحاولة حصرها في الجانب الديني والاجتماعي فقط !!

السيد محمد أحمد المحجوب

أما السيد محمد أحمد المحجوب المحامي ، فقد ظن ساعتها أن المخطط بإسقاط رئاسته للوزارة واستبداله بالسيد الصادق المهدى ، على حداثة سنه وعلم خبرته ، لا يعلو أن يكون سوى حسد وغيرة من أقرانه وزملاء دربه سياسي حزب الأمة ، فقد ظن ساعتها أن له رصيداً كافياً من العطاء للحزب والكتاب يجعله ينافس على المنصب ، فهو زميل دراسة لهم على أيام كلية غردون ، شاعر ، وأديب ومهندس ثم قانوني ومحام بارز عرفه على أيام الجبهة الاستقلالية في الأربعينيات ، ثم زعيماً للمعارضة باسمهم عام ١٩٥٤ في أول برلمان سوداني حيث رفع علم الاستقلال في ١١/١١/١٩٥٦ مع السيد إسماعيل الأزهري رئيس الوزراء آنذاك ، وهو أيضاً وزير خارجيتهم في كل حكومات الحزب التي قادها عبد الله بك خليل قبل انقلاب عبود (حزيران «يونيو» ١٩٥٦ - ١١/١١/١٩٥٧) ثم معارضًا جسوراً ومنتقداً عنيفاً للحكم العسكري الأول برئاسة الفريق إبراهيم عبود ومع الديموقراطية مما جعل العسكر يأمرون باعتقاله في تموز (يوليو) ١٩٦١ وإبعاده إلى ناكشوط بالجنوب ،

- ٩٦ -

وهو أيضاً رمز وممثل لهم في حكومة الهيئات التي شكلت بعد الانفراقة الشعبية في ٢١ تشرين الأول (أكتوبر) ١٩٦٤ وحتى انتخابات ١٩٦٥ ، حيث فاز بمقعد نيازي في الجمعية التأسيسية وقفها ، ومع ذلك فهو ليس بالغريب الوافد على كيان الأنصار ، فهو حفيد للأمير عبد الحليم مساعد من بنته فاطمة بنت عبد الحليم ، فجده عبد الحليم مساعد بطل وفارس من أبطال شيكان التي شهدت ديارها هزيمة ساحقة لقوات الجنرال الإنجليزي هكس باشا .

كان السيد محمد أحمد محجوب يعتقد أن رفقاء دربه سياسى حزب الأمة تنقصهم جمياً الشفافية والجاذبية (الكرسما) لمنافسته على المنصب ، فأتوا بابن الإمام الصديق ذى الثلاثين ربيعاً ووقفوا من خلفه لمنافسته وإبعاده من دست الحكم ، فحاول جهده لكسب السيد الصادق لجانبه بإبعاده عن معسكر منافسيه وضمه لوزارتة شأنه شأن عمه أحمد لتدریبه وتهيئته ملء منصب رئيس الوزراء في وقت لاحق ، لكن الصادق رفض عرضه ، مما جعله يكون في دوامة من أمره . لقد ظن السيد محجوب أنه يمكن أن يتم سني دورته في الحكم دون مناكفة من منافسيه في حزب الأمة ، ثم يذهب بالتراضى لمعاش هادىء ورصيد إنجاز جيد وخاصة أنه ناهز الستين من عمره وقت انقسام حزب الأمة ولكن كان الانقسام وبالاً عظيماً ، فقد سمع عنه ينشد يوم سقوط حكومته في الجمعية التأسيسية :

أنا يا شعب ما طويت على اللوم جراحى وما جرحت اعتقادى
وكفى المرء فخرأً أن يعادى في ميادين مجده أو يعادى

هذا هو محمد أحمد محجوب الذى تزعم أنه عابر سبيل في حزب الأمة
(راجع كتاب «الديمقراطية في الميزان» للسيد محمد أحمد محجوب).

السيد إسماعيل الأزهري والصراع حول رئاسة الجمهورية

أما الحزب الخليف ، فقد رأى زعيمه السيد إسماعيل الأزهري ، السياسي المخضرم ، أن الفرصة قد حانت لتفتيت حزب الأمة ، الصخرة الصماء التي قاومت وأعاقت كل عوامل التعرية في السياسة السودانية . فقد أذنت الفرصة ببنـد الخلاف إلى جوفه ثم تفتـيه إلى أجـنحة والاستفـادة من ذلك التـفتـيت في

- ٩٧ -

انتخابات رئاسة الجمهورية المزمعة ، فالصادق المهدي بقيادته إلى ذلك الخلاف والانقسام ، يدرى أو لا يدرى ، سوف يجنبه صلف وعناد كيان الأنصار وحزب الأمة من دعم منافسه عمه الإمام الهاشمي لو رأى الأخير ترشيح نفسه لذلك المنصب ، وعليه فسوف تكون رئاسة الجمهورية سهلة له متى ما أذنت الظروف بها في ظل انقسام حزب الأمة ، أضف إلى ذلك أن السيد إسماعيل الأزهري لم يكن مولعاً بإبقاء محمد أحمد محجوب في كرسى رئاسة الوزراء ، فهو ندو وبارز له في كل المنافسات السياسية الكبرى في السودان ، فقد نافسه على رئاسة أول وزارة سودانية عام ١٩٥٤ . ثم شاركه أمجاد رفع علم الاستقلال في ١٩٥٦/١/١ ، بوصفه زعيماً للمعارضة آنذاك ، أضف إلى ذلك أن محجوب أثار على السيد إسماعيل الأزهري ، الرئيس المستديم لمجلس السيادة وقتها ، عدداً من المشاكل والعراقبين ، لمحاولاته المتعددة لتأمين صلاحيات تنفيذية لرئاسته وليدة الائتلاف الأخير ، وما محاولته تمثيل السودان منفرداً في مؤتمر أكرا بغانَا إلا شاهداً على ذلك التنافس ، فقد ذهب الاثنان ، بكل من منطقة لتمثيل السودان في ذلك المؤتمر .

ويسقط محمد أحمد محجوب في تموز (يوليو) ١٩٦٦ شكل السيد الصادق المهدي حكومته نيابة عن جناحه عن حزب الأمة مع الحزب الاتحادي الديمقراطي ، إلا أن شهر العسل بين السيد إسماعيل الأزهري والصادق المهدي لم يتم طويلاً ، ففى أقل من عام اختلفا حول تعيين السيد عبد الماجد أبو حسبي وزيراً فرفض السيد الصادق ذلك التعيين مما أثار غضب السيد إسماعيل الأزهري فقرر رفض الائتلاف ، ثم سقط السيد الصادق من رئاسة الوزارة في أيار (مايو) ١٩٦٧ وعاد محمد أحمد محجوب لرئاسة الوزارة مرة أخرى باسم جناحه في حزب الأمة في أيار (مايو) ١٩٦٧ وحلت الجمعية التأسيسية بعد استقالة عدد من أعضائها مما أفقدتها النصاب المطلوب لمواصلة أعمالها . وكانت انتخابات ١٩٦٨ أسوأ تعبير للذلل الخلاف ، فقد خاضها حزب الأمة منقسمًا إلى أجنحة (جناح الإمام الهاشمي وجناح الصادق) فدخل الخلاف والشقاق كل منزل وعانت منه كل الأسر .

- ٩٨ -

كانت خطوة الإمام المأدي في الانتخابات واضحة، فقد صرف أمر الخلاف كله على أنه انقلاب قصر، قصير في عمره، قاده بعض سياسي حزب الأمة لـإحلال زعامة أخرى مكان زعامته، فقيادة السيد الصادق لذلك الخلاف ترجع الأمر كله إلى خلاف أسرى وأى منها فاز، إنما يذهب فوزه في الأسرة، وعليه فلسفة الخلاف بأنه مع الديمقراطي ضد الأسرية التي وصفوها بالكسرمية والبابوية، بينما قيادة الأجنحة المتنازعة هم من الأسرة نفسها، إنما يعتبر نوعاً ما ديمagogie السياسيين .

فاحتفظ لنفسه بحق الرعاية ولم يرشح نفسه في أى دائرة انتخابية، ثم رشح مؤيديه في كل المواريث التي كان يتوقع الفوز بها، إلا أنه وبصفة خاصة وجه مؤيديه لـإسقاط كل الرعامات والكواذر السياسية التي قادت الخلاف .

أما السيد الصادق من منطلق الرعامة والقيادة السياسية لجناحه ، فقد رشح في دائرة انتخابية كارشح كل القياديين الذين أيدوه في توجهاته واحتدم الخلاف، وتم التصويت وسقط السيد الصادق المأدي ومعظم قيادييه وفاز السيد محمد أحمد محجوب .

أما الذين فازوا من جناح الصادق فقد وجلوا أنفسهم داخل الجمعية التأسيسية في حالة ضياع شديد لغياب القيادة المثابرة والجادلة للمواجهات البرلمانية المعروفة .

وشكل محمد أحمد محجوب نيابة عن الإمام حكومة ائتلافية مع الحزب الاتحادي الديمقراطي ، بدأت عمليات الترميم داخل أروقة حزب الأمة لـإصلاح ما أفسده الخلاف ونجحت المساعي بالصلح بإقرار الحقيقة بأن إمام الأنصار هو الرجل الأول وهو راعي الحزب والكيان وله الحق بالتوجيه والشورى فيما يرى ، وهو أمر بإقرار الثوابت في حزب الأمة ، فقد ضاع وقت ومجهد كبير لإثبات البديهيات ، لقد تسبب ذلك الخلاف في انفراط الأمر داخل الكيان وداخل الحزب بالدرجة التي أضرت بكثير من التقاليد والقيم المتعارف عليها والتي يمارس بها العمل العام ، ولكن عندما وصل الجميع نقطة البداية كانت النهاية وسقطت الديمقراطية الثانية في سهولة للعسكر، واستعجب الجميع !!!

- ٩٩ -

هكذا ، أمازالت ترى أن هذا الخلاف كله سببه عدم رغبة الإمام في تطوير الحزب ، أم أنه حقيقة يعكس طموحات الرجال ، بعضها مشروع وآخر مزايد عليه ، فقرر كما تشاء .

أما ما حدث للكيان بعد ذلك إبان عهد مايو ، فقد سقناه في المقالات السابقة ، خاصة فيما يتعلق بمحاضر الجزيرة أبا وودنوباوى ، الذي يهمنا ذكره هنا ، هو أن رجالات حزب الأمة ، أتوا للديمقراطية الثالثة على أشلاء شهداء الكيان ، فلم الإمام الشهيد المادى عبد الرحمن المهدى ورفاقه الأبرار من كيان الأنصار وغيرهم من المواطنين السودانيين ، مهد الطريق واضحاً للديمقراطية الثالثة ، وترك جروحاً ما زالت تنزف حتى حين سقوط الديمقراطية الثالثة ، وذاك ما يأتي في الصفحات اللاحقة .

- ١٠٠ -

جواب الدكتور صادق المهدى على السؤال الثامن لإبراهيم الغرباوي

لقد ساهمت منظومة حزب الأمة السياسية في هجرة أبناء الأنصار والدخول في هيئات وأحزاب مثل الحزب الشيوعي والبعث الاشتراكي والجبهة القومية الإسلامية - ويمكن إطلاق صفة الأحزاب الهرمة التي دب فيها الشيخوخة في أوصالها عليه .

ولكن كيف حافظ حزب الأمة على المقادير السياسية في السودان ؟ وكيف يمكن كذلك من تلميع صورة الحزب لتكون أكثر نصرة وشباباً ؟

لا أافقك الرأى فيما ذهبت إليه في أن «منظومة حزب الأمة السياسية ساهمت في هجرة أبناء الأنصار والدخول في هيئات وأحزاب مثل الحزب الشيوعي السوداني والبعث إلخ» .

فحزب الأمة ، التنظيم السياسي لكيان الأنصار ، ما زال يمثل أكبر كتلة في التنظيمات السياسية السودانية التي تتمتع بقواعد شعبية عريضة ، ففي انتخابات ١٩٥٧ نال حزب الأمة أكبر كتلة برلمانية وكذلك في انتخابات ١٩٦٥ وهكذا ظل حاله إلى أن سقطت الديموقراطية الثانية للعسكر ، ومع إطلاعه مايو وتحريشاتها الواضحة ضد الكيان ، التي أسفرت عن معارك حربية كبيرة في الجزيرة أبا وودنوباوى ثم ٢ حزيران (يونيو) ١٩٧٦ شُدّت أعصاب وأوتار عواطف كل القواعد الأنصارية ، في ذهول شديد لما حدث ، وفي ألم وحسرة شديدين ، استرجعت عقلها وتناسلت خلافاتها ، أمهددون نحن بالرزايل ، ماذا يريد هنا هؤلاء الشيوعيون ??

فتحركت حاسة حب البقاء في أوصاله ، وأنارت دماء الشهداء المسفحة ، بما فيهم إمامهم ، الطريق أمامها فنسجت وأمنت وحدتها

- ١٠١ -

التي عاد بها الحزب إلى موقعه الطبيعي كأكبر كتلة سياسية في السودان في انتخابات عام ١٩٨٦ .

لذلك تجدني أتحفظ كثيراً على ما ترجم ، ولعل السؤال يكون أوضح - لو تسأل عن مصير الحزب بعد أدائه العاجز في عهد الديمقراطية الثالثة - أما كيف نتخطى ذلك لكي يكون حزب الأمة أكثر نضرة وشباباً فهذا أمر مطروح للنقاش لي وللك ، فاكتب ما تشاء مع شكري .

- ١٠٢ -

جواب الدكتور الصادق الهادى على السؤال التاسع والعاشر لإبراهيم الغرباوي

لماذا حاول زعماء حزب الأمة من عائلة المهدى التأكيد على أن الإمام الهادى حى وسوف يعود وأنه عيسى المسيح وأنه المنقذ الوحيد - رغم أن المعروف أن الإمام الهادى قتل في ١٩٧٠ - ولماذا حاول ولى الدين ونصر الدين الهادى المهدى من تكريس هذه المفاهيم الخاطئة في أذهان أنصار المقيمين في معسكراتهم في أثيوبيا ، وهل هي بظاهره توظيف سياسى اقتصادى للمعونات التى كانت ترسل لتلك الفئات لكن تدوم فى معسكراتهم زهاء تسعه عشر عاماً . وما هي التعويضات التى منحت لعائلات الأنصار الذين ماتوا فى أحداث الجزيرة أبا وودنوباوى فى أذار (مارس) ١٩٧٠ ؟

حديثاً لماذا يحاول حزب الأمة بقيادة مبارك المهدى توقيع اتفاقية بين حزب الأمة وحركة تحرير السودان بقيادة العقيد جون قرنق - علماً أنهما طرفان نقىضان فى المفاهيم الدينية والسياسية - ومن نتائج الاتفاق سوف يكون غرب السودان هو الخاسر الأعظم نسبة لأن جمیع أو معظم الجنود فى الرتب الدنيا فى الجيش السوداني فى غرب السودان وكذلك يزج ميليشيات حزب الأمة فى أتون الحرب وسوف يدفعون الثمن ، علماً أن معظم المتضوين فى الميليشيات كذلك من غرب السودان !! لذا ما هي النقاط الإستراتيجية فى الاتفاقية الحديثة ؟

جواب السؤال التاسع :

أنا ابن شهيد ، عرفت البیتم وتضررت منه ، فلا أنطق عن الهوى أو المزايدة السياسية مجرد الدفاع عن أسرة بعينها ، ومع ذلك ورغم الأسلوب الذى طرح به السؤال ، سوف أحاول أن أكون موضوعياً فيما أكتب . و « عيسى المسيح »

- ١٠٣ -

و «المنقذ الوحيد» الذي تتحدث عنه في عفوية شديدة هو أبى «والد كاتب المذكرات» كما كتبت وهو أمير الراية الذي سقط دونها وسيد الشهداء، إمام الأنصار، أكبر وأعرق تجمع سياسى عرفه السودان في تاريخه الحديث، نحن أبناءه لا نزايده على استشهاده لأى مكسب سياسى أو مادى كما تزعم، إنما تتحدث عن الباقيات الصالحة من أعماله، نطلب لروحه الرحمة مع الصديقين والشهداء وحسن أولئك رفيقاً، فقد أوفى ما وعد، ووقف مع ما أعلن في مذكوريته المطولة مجلس قيادة الثورة عام ١٩٧٠ والتي تلخصها في النقاط الخمس الآتية :

- ١ - إزالة اللافتة الشيوعية عن الحكم .
- ٢ - عودة الجيش إلى التكتبات .
- ٣ - العمل على إجراء انتخابات عامة في البلاد .
- ٤ - إطلاق سراح المعتقلين السياسيين .
- ٥ - العمل على إجازة الدستور الإسلامي المقترن من الجمعية التأسيسية ١٩٦٤ - ١٩٦٩ .

وكارد مجلس قيادة الثورة عليه وعلى مطالبه أعلاه، هو إرسال ترسانة حربية، اشتراك في تهيئتها وتوفيرها أكثر من دولة لمسح الجزيرة أبا من الكرة الأرضية، وفعلوا ما أمكنهم ذلك، وقتل هو ورفاقه الشهداء برصاص الغدر .

لم نتاجر نحن أبناءه بدمه كما تزعم، فالسؤال مردود لك لتساؤله إلى زعامات الجبهة الوطنية البارزين وقولها إن كانت هناك متاجرة في الأمر، وللمعلومة السائل فليس كل قيادات وزعامات الجبهة الوطنية من أسرة المهدى، الذي نعلمه نحن عن بقاء الأنصار في معس克راهم في أثيوبيا كان هدف نبيل، قوامه استئثار مقدراتهم الحربية والقتالية لتصديع وإسقاط نظام ما يبرهن بضربات عسكرية متلاحقة. وقد نبغ زعماء الجبهة الوطنية في الأسلوب الذي اتبعوا به الأنصار لتلك المواجهة. لقد وهب الأنصار وإمامهم أرواحهم سهلة لعودة الديمقراطية للسودان وعادت ، ولكنها بكل أسف طارت من دون أن تفني لهم حقاً ، فطاحت تتابعها أرواحهم ولعنة دمائهم .

- ١٠٤ -

لأعرف عن زعيم مرموق من زعماء حزب الأمة أو آل المهدي حاول خداع الأنصار بحياة الإمام الهادي ، إلا أنني أقول : كلنا كنا نتطلع لمعرفة الحقيقة ، فقد كنا في دوامة من الأسئلة والأطروحات عن مصير الإمام الهادي ، فالحكومة لم تسع لتوضيح لنا نحن أهله وذويه . وأول أيام دمه ، أمر اغتياله ، وكذلك لم تسلمنا جثمانه أو ترشدنا لقبره ، فماذا كنت تنتظر ، أنسدقت المذياع !! لذلك كان هناك مجال خصب لينطق كل على هواه . أما بعد المصالحة بين جعفر نميري والصادق المهدي عام ١٩٧٧ ، فقد أعلن الصادق المهدي ونصر الدين الهادي المهدي فوق أكثر من منبر بآه استشهاد الإمام الهادي لجموع الأنصار ، حدث ذلك في أم درمان في خطبة عيد الأضحى المبارك وفي الجزيرة أبا في صلاة عيد الفطر ، فقطعت جheimera قول كل خطيب .

أما بخصوص التعويضات لأسر شهداء الأنصار بما فيهم إمامهم ، فقد طالبت ، قبل أن تطيح حكومة السيد الصادق المهدي على عهد الديمocratie الثالثة ، برد اعتبار الشهداء وذلك بالتحقيق مع صناع القرار أعضاء مجلس قيادة الثورة عام ١٩٧٠ الذي تسبب قرارهم في إبادة آلاف من الأنصار ، فقد كنت حريراً بأن نقف على تفاصيل الذي حدث حتى يكون في السجلات وفي دار الوثائق والتاريخ ، أما محاسبة صناع القرار بعد تسجيل الذي حدث ، فيترك أمره لشيوخ الأنصار . ليقروا ما يرون ، راجع جريدة الرأية السودانية آب (أغسطس) ١٩٨٨ ومجلة الأشقاء السودانية آذار (مارس) - آيار (مايو) ١٩٨٩ كذلك طالبت برصد أسماء كل شهداء الديمocratie الذين استشهدوا تضرروا في أحداث الجزيرة أبا وودنباوي ، و٢ تموز (يوليو) ١٩٧٦ ، وكانت أرى أن تدفع الديمocratie الثالثة مهرها لهم في شكل تسهيلات وتعويضات مناسبة لأسرهم (خاصة الأرامل واليتامى) تمكنهم من العيش الكريم أسوة بهم تضرروا من القوات المسلحة في تلك المساجلات الدموية ، لكن بكل أسف لم يحدث شيء من ذلك الاتجاه ، فالذي حدث هو هرج ومرج يتأنف العاقل عن ذكره وكفى .

أما نحن أسرة الإمام الهادي المهدي ، فلم ترد لنا الديمocratie الثالثة حتى

- ١٠٥ -

اليوم حقوق والدنا الإمام الشهيد الشرعية التي صادرها نظام مایو، بل طالبنا في غلظة أن نلجأ للقضاء، ففعلنا، وأصدر القضاء العادل حكمه لصالحنا في جلستين فقط، ورغمًا عن ذلك لم ترد لنا حقوقنا المصادرة حتى اليوم . فماذا تقول ٩١!

جواب السؤال العاشر :

أما سؤالك عن اتفاقية مبارك عبد الله الفاضل المهدى باسم حزب الأمة ، وجون قرنق عن حركة تحرير السودان فلا تفاصيل عندي عن إستراتيجيات ذلك الاتفاق ، وكل الذي أعلمه عن ذلك الاتفاق هو ما نشرته وسائل الإعلام المقربة ، وأنا شخصياً أوافقك الرأي في أن كلاً من جون قرنق ومبارك المهدى ، عندما كان وزيراً للداخلية في حكومة السيد الصادق المهدى الأخيرة ، كانا يقفان على طرف نقيض ، فقد اعتقل السيد مبارك كل الذين تعاطفوا مع جون قرنق في ثورة أمبو بأثيوبيا ، هذا من جهة ، أما من الجهة الأخرى فكلنا يعلم علم اليقين بأن جون قرنق لعب دوراً واضحاً في هدم حكومة الديمقراطية الثالثة بقيادة السيد الصادق المهدى ، وذلك برفضه لأى نوع من التفاهم أو الاتفاق مع رئيس الوزراء لإيقاف حرب الجنوب ، فقد كان جون قرنق يعرف سلفاً كم كانت تستنزف تلك الحروب من إيرادات ومقدرات حكومة الديمقراطية الثالثة المهزلة ،حقيقة أن جون قرنق ، بدلاً أن يكون معقولاً في مواقفه ، تمادي في الضغط العسكري على تلك الحكومة واحتل منها عنوة كل الواقع التي يمتلكها الآن لربكها ثم إسقاطها وحدث ذلك بالفعل ، فقد طاحت للعسكر .

لقد أفادت بعض مصادرى أن هناك أعضاء بارزين من الإخوة الشماليين ، في حركة قرنق كانوا يصررون على أنهم سوف لن يمنحو السيد الصادق المهدى شرف إيقاف حرب الجنوب ، فإن تم ذلك ، فسوف يذهب شرف ذلك لجهة سياسية منافسة ، علماً بأن السيد الصادق هو الذى سهل لجون قرنق كثيراً من مهامه الصعبة إبان بناء قوته العسكرية لمصادمة جعفر نميرى على عهد مایو . فنصرات جون قرنق في التمادي في تحطى رئيس الوزراء

- ١٠٦ -

وتجاهله ، إنما هو نكران للجميل ، فقد أفاد أكثر من مصدر وجهة ، وقتها ، أن جون قرنق وكل الذين يتعاطفون معه سوف يقفون سياسياً ضد حزب الأمة وكيان الأنصار قبيل الإطاحة بحكمتهم .

أعتقد من تلك الخلفيات ، وبعد سقوط حكومة السيد الصادق الأخيرة ، كان مسموماً مبارك عبدالله أن يناقش بالصوت العالى ويفاوض زعماء حركة قرنق لتصحيح بعض المواقف والمفاهيم السياسية المتشددة من الجانبيين ، خاصة ضلوع قرنق غير المفهوم في التعاون مع إسرائيل ، أما أن يصل ذلك النقاش إلى درجة إمضاء عقود ومواثيق باسم الأنصار وحزب الأمة لإرجاع الديمقراطية ، مع حركة ليست من الديمقراطية في شيء ، ولا تتعامل بالديمقراطية فيما تمارسه من سياسة بزعم أنها ثورة وتعامل بالحسن الشورى . في تقديرى أن مثل ذلك الالتزام هو فوق طاقة الكثرين مما لاستيعابه أو قبوله ، فنحن لسنا طلاب سلطة فقط نريد استرجاعها متى ما طاحت وبأى ثمن ، اللهم إلا إذا اقتنعنا بوجهة النظر التى تقول ليس في السياسة صدقة أو عداء ثابت !!

إلا أن بجون قرنق عداء ثابتاً للعروبة والإسلام فقد عُرف عنه ذلك أثناء دراسته في جامعة أويوا بأميركا . لقد انتقص جون قرنق من الديمقراطية حينما رفض العودة إلى السودان على عهد الانتفاضة في نيسان (أبريل) ١٩٨٥ للوقوف مع أبناء وبنات السودان لتشييت نهجها ، ثم كان معلولاً هداماً في الإطاحة بها حينما تمادى في حرب الجنوب ، حتى سقطها !! في تقديرى المتواضع أن جون قرنق لم يقدم على اتفاقياته الأخيرة إلا بعد ما استوثق أن كل بنودها تدعم زعامته وتبني أمجاده وريادته لديمقراطية رابعة يكون هو فارس عودتها .

(انتهى)

- ١٠٧ -

وقائع الجلسة الختامية لمحكمة قتلة الإمام الشهيد اهادى المهدى
ومرافقية .

وصف تفصيلي لأحداث الكرمك :

Judicial Form 'A 3 C (1)

Summary of Salient Facts

1. Name of accused .

- ١ - عبيد كمال الأمين .
- ٢ - مختار طلحة .
- ٣ - أحمد حسين يامسيكه .
- ٤ - وداعة على سيد أحمد .
- ٥ - عبد الله إبراهيم حبيب الله .
- ٦ - تيراب الغالي نور .

11. Name of deceased (if any).

- ١ - الهدى عبد الرحمن المهدى .
- ٢ - سيف الدين الناجي .
- ٣ - محمد أحمد مصطفى .

111. Date and place of occurrence.

القتيل الأول	جوار قرية أونسة
القتيل الثاني	جوار قرية أونسة
القتيل الثالث	خور الدوم .. باو

V. Date and place of first report.

الدمازين في ١٦/٤/١٩٨٧ م .

V. Relationship of the parties and witnesses.

القتيل الثالث الحال القتيل الأول .

القتيل الثاني ملازم للقتيل الأول باعتباره إماماً لطائفة الأنصار .

الوقائع التي صدقها المحكمة :

الوقائع الأساسية كما وردت على لسان شهود الاتهام تسلسلها تتلخص في أنه وبتاريخ مارس ١٩٧٠م قرر الرئيس السابق جعفر محمد نميري القيام بزيارات تفقدية لمناطق النيل الأبيض شرقاً حتى سنار وشمالاً حتى الدويم وجنوباً حتى الجبلين وغرباً حتى تندلي. وصاحب ذلك زيارات لبعض المسؤولين للجزيرة أباً بقصد التفاوض مع الإمام الهادي لوقفه من نظام ثورة مايو وترتب على ذلك وصول حشود كبيرة من الأنصار تواجدت على الجزيرة أباً. وقد حضر من قبل النظام الحاكم آنذاك كمتفاوض كل من الفاتح عابدون وإسماعيل السيد عبد الله مبدين رغبة النظام في التفاوض مع الصادق المهدي وأن يتم التفاوض مع الخرطوم، وقد استجاب الإمام الهادي لهذه الرغبة وبعد أن أكد له الفاتح عابدون سلامة الصادق المهدي وبموجب ذلك غادر الصادق المهدي الجزيرة أباً للخرطوم حيث اعتقل هناك وعلى أثر اعتقاله تجمعت أعداد كبيرة من الأنصار بالجزيرة أباً وخطبهم الإمام الهادي وأوضح لهم حقيقة الموقف وطلب منهم الصبر وأنه سيعالج الموقف بهدوء. وبالفعل انفضَّ الجمع غير أن وفود الأنصار لا تزال تتقاطر نحو الجزيرة أباً.

ظلت الأحداث متلاحقة حيث تم احتلال الملحج والمصرة التابعة لدائرة المهدي بواسطة السلطة الحاكمة آنذاك وتم إزالة أعداد من الآليات والجنود بربك ثم بعد ذلك بدأت زيارة الرئيس السابق لمنطقة النيل الأبيض بالوجه الذي أشرنا إليه .

خلال ذلك كانت الوفود تتقاطر نحو الجزيرة أباً للتفاوض مع الإمام الهادي مثل اللواء أحمد عبد الوهاب وزيادة أرباب وآخرين ثم حضرت قوة عسكرية على رأسها أبو القاسم محمد إبراهيم فاروق حمد الله ويوسف أحمد يوسف للجزيرة أباً وعند مقابلتهم للإمام الهادي أوضحوا أن القصد من حضورهم إقامة نقطة للشرطة بالجزيرة أباً وبعد نقاش أسنداً صلاحيات الشرطة لعمدة الجزيرة أباً على أن يستعين بشرطة المرابع عند الضرورة .

- ١٠٩ -

في هذا الوقت تم إعلان زيارة الرئيس السابق للجزيرة أبا فتوصل مجلس شورى الأنصار أن الغرض من الزيارة هو اعتقال الإمام الهادى فجاء ذلك الشعور العام داخل الجزيرة أبا وتم رفع شعارات سياسية توضح المطلب .

في يوم الخميس حضرت قوة كبيرة من القوات المسلحة وعدد ٤٣ قطعة من دبابات وعربات عسكرية ودبابات برمائية مخترقة الجاسر في اتجاه الجزيرة أبا فتعرضت لها مجموعة كبيرة جداً من الأنصار واحتجزتها وكان على رأس هذه القوة كل من المقدم عثمان أمين قائد حامية كوسى في ذاك الوقت ومحمد أحمد أبو الذهب وأفادوا بأنهم موفدون من قبل الضباط الأحرار للتفاوض مع الإمام الهادى واستقلوا عربة شاهد الاتهام الأول خالد محمد إبراهيم متوجهين للسرائى حيث الإمام الهادى وتم خضوع المقابلة عن اتفاقية من ست نقاط وقع عليها الإمام الهادى من جانب والمقدم عثمان أمين ومحمد أحمد أبو الذهب من جانب السلطة وهى اتفاقية سياسية في المقام الأول .

في صبيحة الجمعة أشيع أن الرئيس السابق قطع زيارته لربك وعاد للخرطوم وعند الساعة الثالثة بعد الظهر وقع قصف مدفعي مكثف على الجزيرة أبا حيث بدأت القوة المرابطة في إطلاق النار وبذلت تقدم نحو الجاسر ونصبت القوات المسلحة المدافع بمنطقة الجاسر وظلت تضرب الحشود ، وإزاء مقاومة الأنصار لها انسحبت القوة العسكرية إلى ربك وقد الأنصار الكثير من القتل والجرحى وبلغ عدد القتلى ١٠٤ قتلى .

في صبيحة السبت حدث بعض المناوشات الخفيفة واستمر ذلك طيلة اليوم .

في صباح الأحد بدأ ضرب مكثف من جهة الشرق من حجر عسلاية ومن الغرب من الطويلة بالمدفعية وصاحب ذلك غارات جوية واستمر ذلك طيلة اليوم حتى مغيب الشمس وكانت الطائرات قد ألقت بمنشورات تطالب الموظفين والمسؤولين بإخلاء الجزيرة أبا غير أنه لم يتمكن أحد من الخروج بسبب القصف الجوى المستمر .

- ١١٠ -

في يوم الاثنين بدأ الضرب مبكراً وبصورة أعنف وتزامن ذلك مع أحداث ودنباوى بأم درمان .

وفي مساء نفس اليوم بدأ التشاور داخل الجزيرة أبا بخوصص هجرة الإمام الهادى واتفق مجلس الشورى على ذلك وأن يكون أمر الجزيرة أبا بعد هجرة الإمام لشاهد الاتهام الأول خالد محمد إبراهيم ، وحقنا للدماء وإيقافاً لنزيف الدم طلب الإمام الهادى من شاهد الاتهام الأول تسليم الجزيرة أبا بعد هجرته وعند الساعات الأولى من فجر الثلاثاء وعند الواحدة صباحاً خرج الإمام الهادى من الجزيرة أبا يرافقه كل من عمر مصطفى ومحمد أحمد مصطفى وعباس أحمد عمر وسيف الدين الناجي ومحمد على يونس ومحمد محمد صادق الكارورى وعز الدين الشيخ عبد المطلب بابكر خوجلى والفضل الهادى بعرية لورى عن طريق منطقة الجاسر إلى أن وصلوا لمنطقة خور أحمر حيث قابلهم عمال الطريق وعلى رأسهم شاهد الاتهام العاشر أبو بكر عبد فرح .

عند وصول الإمام الهادى ومرافقه لتلك المنطقة انقسموا إلى مجموعتين لتحرش سكان قرية أونسه بهم مما اضطربهم لتهديده وتم الاتفاق على أن تتجاوز المجموعة الأولى خور أحمر وتدخل في الأراضي الأثيوبيه وتظل المجموعة الثانية مرابطة للحراسة ، وقد ضمت المجموعة الأولى كلا من الإمام الهادى ومحمد أحمد مصطفى وعمر مصطفى وسيف الدين الناجي والفضل الهادى وضمت المجموعة الثانية كلا من عباس أحمد عمر ومحمد محمد صادق الكارورى وعز الدين الشيخ عبد المطلب بابكر ، وتحركت المجموعة الأولى صوب الحدود الأثيوبيه .

في تلك الأثناء كان شاهد الاتهام العاشر أبو بكر عبد فرح قد أبلغ سلطات الشرطة بالكرمك بوجود هذه المجموعة المسلحة وترتب على هذا البلاغ أن تحرك الملازم مختار طلحة على رأس قوة من الشرطة متبعاً هذه المجموعة ووصل الملازم مختار طلحة وبمعيته شاهد الاتهام الهادى عشر حسن أحمد دفع الله وبرفقتهم قوة من الشرطة ولم يستطيعوا التوغل للداخل بالعربات

لوعورة الطريق فترجلا منها وأشار لهم الأهالى لمكان المجموعة فتوجهوا إليها فوجلوا المجموعة الثانية محاطة بأهالى منطقة أونسه فاستسلمت للشرطة دون أي مقاومة وتم تحريرهم من الأسلحة التى كانت بحوزتهم وتم إيقافهم بالحبال من الخلف وتركت معهم حراسة من أفراد الشرطة مكونة من وداعنة على سيد أحمد (المتهم الثالث) وعبد الرحمن دفع الله (شاهد الاتهام السادس) وعباس أحمد عباس (شاهد الاتهام السابع) وتحرك الملازم مختار طلحة للاحقة المجموعة الأولى يرافقه كل من أفراد الشرطة عبيد كمبال الأمين (المتهم الأول) وأحمد سكاف قطيبة (شاهد الاتهام الخامس) وفضل الله عشان وعثمان عبد المجيد (شاهد الاتهام الثامن) ورمضان سعيد، وتغلوا داخل غابة كثيفة الأشجار وعراة المسالك وعلى بعد ثلاثة أميال تقريباً من مكان المجموعة الأولى وصلوا لمنطقة خور رمل عميق حيث شاهدوا مجموعة جالسة على الأرض ويبدو أنها في انتظار المجموعة الثانية ، تقدمت القوة نحو مكان المجموعة وطلبوها منهم أن يسلموا أسلحتهم فاستسلموا برفع الأيدي وببدأ تفتيش المجموعة بواسطة قوة الشرطة ، ظهرت بوادر مقاومة من جانب المجموعة للقوة حيث قاوم الفاضل الهادى إجراءات التفتيش التى كان يقوم بها الجندي أحمد سكاف قطيبة (شاهد الاتهام الخامس) وعندما تدخل الملازم مختار طلحة لمساعدته هجم عليه الفاضل الهادى محاولاً انتزاع مدفعه وأنثناء ذلك رجع الإمام الهادى الذى كان ملثماً للخلف لعمل ساتر وأدخل يده في صدره وأخرج مسدساً صوبه نحو الملازم مختار طلحة فصاحت فيه المتهم عبيد كمبال بعبارات يطلب فيها إلى المرحوم الإمام الهادى أن يعدل عما يزمع القيام به من مقاومة إلا أنه لم يستجب للنداءات المتكررة من المتهم الأول فما كان منه إلا أن أطلق عليه عياراً نارياً أصابه في فخذه الأمين مسبباً له جرحاً أدى إلى نزيف أودى بحياته بعد زمن قصير من الواقعه .

بعد ذلك اكتشفت قوة الشرطة أن الشخص المصاب هو الإمام الهادى فبدأ قائد القوة محاولته لإنقاذه وأمر بربط الإصابة بعمامة وتحرك مسرعاً لإحضار طبيب إلى أن وصل موقع المجموعة الأولى وأخطر الملازم حسن أحمد

- ١١٢ -

دفع الله (شاهد الاتهام الحادى عشر) وطلب منه إحضار الطبيب وبعد تحركه لحق به بعربته التى كانت تبعد حوال ٦ أميال من مكان الحادثة داخل الغابة .

انهارت المجموعة بعد إصابة الإمام المادى وحاولت قوة الشرطة ترحيلها لمكان المجموعة الثانية، وتم ذلك بصعوبة لوعورة المنطقة ولأن قوة الشرطة عادت تحمل الأمتعة الخاصة بالأسرى بالإضافة إلى أسلحتهم والمعروضات .

قبل أن يصل الملازم مختار طلحة للكرمك قابله المتهم الثانى أحمد حسين بامسيكه متوجهاً لموقع الحادث ترافقه قوة من الشرطة ، ونقل إليه ضابط الشرطة ما حدث وتحرك نحو الكرمك لإحضار الطبيب بينما توجه أحمد حسين بامسيكه المتهم الثانى موقع الأحداث .

في تلك الأثناء كان شاهد الاتهام الحادى عشر حسن أحمد دفع الله قد أصدر أمراً لشاهد الاتهام الثانى عشر للتوجه نحو الدمامين والاتصال بالكتابية العامة للبلد بقيادة العامة وإخبارها .

وصل المتهم الثانى أحمد حسين بامسيكه ووجد الإمام المادى قد فارق الحياة ، وكان سيف الدين الناجي جالساً على الأرض واضعاً رأس الإمام على حجره في حراسة قوة الشرطة فطلب منه الوقوف فرفض سيف الدين الناجي وأخذ يكبر : الله أكبر والله الحمد عدة مرات فما كان من المتهم الثانى أحمد حسين بامسيكه إلا أن أطلق عليه من مسدسه ثلاث طلقات نارية في صدره وأمر شاهد الاتهام الرابع الأمين مصطفى إدريس أن يصرعه بطلقة إلا أن الأخير رفض الانصياع للأمر فأمر المتهم الثالث وداعمة على سيد أحمد فاستجواب المتهم الثالث للأمر وأطلق طلقة نارية واحدة من بندقيته على صدر سيف الدين الناجي حيث توفى نتيجة هذه الطلقات النارية التي أصيب بها في صدره .

وفي حوالي الساعة السادسة عشرة والنصف مساء حضرت عربة جيش ديمير كبيرة وصلت إلى موقع الحادث بعد أن تم قطع الأشجار حيث تم تسليمهم

- ١١٣ -

جثة الإمام الهاشمي وسيف الدين الناجي وسلم محمد أحمد مصطفى حيًّا . وهذه القوة من الجيش هي القوة التابعة للاستخبارات العسكرية والتي كانت ترابط خارج الكرمك بقيادة الملازم حسن أحمد دفع الله شاهد الاتهام الحادى عشر .

في تلك الأثناء كان شاهد الاتهام الثاني عشر صديق أبوالحسن قد وصل للدمازين وأجرى محادثة تليفونية بالخرطوم ونقل إليهم وفاة الإمام الهاشمي وأسر من معه وأبلغه مجلس قيادة الثورة متمثلاً في رئيسيه السابق بأن يخطر شاهد الاتهام الحادى عشر حسن أحمد دفع الله بقتل بقية الأسرى وعندما علم الرئيس السابق برتبة محدثه طلب ضابط أعلى منه ومن ثم أحيلت المحادثة لحامية الدمازين فتلقاها الملازم تيراب الغالي نوار المتهم الخامس وقائد ثاني حامية الدمازين وبدوره أحضر المتهم الرابع عبد الله إبراهيم حبيب الله قائد حامية الدمازين ودارت محادثة بينه وبين رئيس مجلس قيادة الثورة السابق فور انتهائهما طلب المتهم الرابع من المتهم الخامس أن يصطحب معه شاهد الاتهام الثاني عشر ويتجهوا بقوة عسكرية ومعهم معدات الدفن لدفن القتلى وعقب تحركهم وصل الملازم حسن أحمد دفع الله شاهد الاتهام الحادى عشر لحامية الدمازين وأبلغه المتهم الرابع بفحوى المحادثة مع الرئيس السابق جعفر غيرى وطلب منه إثناء الرئيس السابق عن قتل بقية الأسرى ، وفي تلك اللحظة اتصل الرئيس السابق لمتابعة الأحداث فتحدىت معه شاهد الاتهام الحادى عشر وطلب إليه الإبقاء على حياة الأسرى فاستجاب لطلبه .

وفي هذه الأثناء تحرك المتهم الخامس من الدمازين على رأس قوة يرافقه شاهد الاتهام الثاني عشر ومعهم معدات الدفن الموقى إلى أن وصل لنقطة باو التي تبعد ٥٩ كم من الدمازين حيث تم حفر قبرين على بعد ١٥٠ متراً شمال شرق مفترق الطرق المؤدى إلى قادمية والطريق المؤدى إلى باو وكان البعد بين القبرين حوال ١٠ خطوات ووصلت لطريقهم عربة جيش تحمل جثة المرحومين الإمام الهاشمي وسيف الدين الناجي و محمد أحمد مصطفى وكان حيًّا ثم اختيار اثنين من الجنود أحدهما من الإقليم الشمالي والآخر من الإقليم الجنوبي وأمر المتهم الخامس الجندي الأول بإعدام محمد أحمد مصطفى فتردد مما

كان منه إلا أن أمر الجندي الآخر وهو من أبناء الإقليم الجنوبي لإعدام محمد
أحمد مصطفى وتم تنفيذ الإعدام بطلقة اخترقت الرأس من الخلف مهشمة
للوجه من الأمام ثم بعد ذلك دفن كل من سيف الدين الناجي ومحمد أحمد
مصطفى في قبر واحد في وضع معكوس ودفن الإمام المادى في مقبرة وحده
وبعد ذلك عاد المتهم السادس إلى الدمازين بعد أن نفذ المهمة .

أخذ بقية الأشخاص المقبوض عليهم بعربة جيش إلى الدمازين صباح اليوم
الثاني للحادث وأحضرت طائرة حرية أُفلاطهم إلى الخرطوم بمعية شاهد الاتهام
الحادي عشر حسن أحمد دفع الله .

- ١١٥ -

بسم الله الرحمن الرحيم

Judicial Forms A 3 and A 4

C
FINDING

(NOTE- the finding is part of the Judgment.

(Code of C. P. Section 243.)

The Court finds that the accused (1)

(insert names)

المتهم الأول : عيد كمال الأمين : غير مذنب تحت المادة ٢٥١ ع
لسنة ١٩٢٥ م .

المتهم الثاني : أحمد حسين بامسيكة: مذنب تحت المواد ٢٥١/٨٤
لسنة ١٩٢٥ م .

المتهم الثالث : وداعية على سيد أحمد : مذنب تحت المواد ٢٥١/٧٩ ع
لسنة ١٩٢٥ م .

المتهم الرابع : عبدالله إبراهيم حبيب الله: غير مذنب تحت المواد ٨٤ / ٢٥١
ع لسنة ١٩٢٥ م .

المتهم الخامس: تيراب الغالي نوار: مذنب تحت المواد ٢٥١ / ٨٤ ع
لسنة ١٩٢٥ م .

سيد علي محمد ديدان

رئيس المحكمة الكبرى

REASONS FOR FINDING (2)

قلم المتهمن للمحاكمة تحت طائلة المواد ٢٥١ و ٢٥١ / ٨٤
و ٢٥١ / ٧٩ من قانون العقوبات لسنة ١٩٢٥ .

- ١١٦ -

و قبل الخوض في تحديد مسئولية كل متهم على حدة يتبعن أن نقدم للقرار ب نقطة جوهرية وأساسية لم ترد في دفوع المتهمين ، ومع ذلك فإن مناقشتها يعد أمرأً مهماً للتمهيد للقرار ، و نعني بهذه النقطة مسألة ما إذا كان المتوفون فعلاً هم المرحوم الهادى عبد الرحمن المهدى وسيف الدين الناجى و محمد أحمد مصطفى ، وهل ما تم نبشه من قبور وما استخرج من رفات متعلقاً بهؤلاء الجنى عليهم يقيناً؟ وللتقرير في هذه النقطة يتعين أن تناقش البيانات الواردة في هذا الصدد . لقد جاء في أقوال شاهد الاتهام الأول أن المرحوم الهادى عبد الرحمن قد غادر الجزيرة أباً قبل يوم الثلاثاء الذى عقب قصف الجزيرة أباً وقد أكد مرافقة المرحومين سيف الدين الناجى و محمد أحمد مصطفى له بالإضافة إلى كل الأسرى الذين تم القبض عليهم في موقع الحادث ، وقد أكد شاهد الاتهام الثاني الشیخ محمد صادق الكارورى أنه رافق الإمام الهادى عبد الرحمن والمرحومين سيف الدين الناجى و محمد أحمد مصطفى وبقية المقبوض عليهم من الجزيرة أباً في نفس التاريخ الذى حده شاهد الاتهام الأول ، وأكّد هذا الشاهد أنهم ذهبوا جميعاً صوب الحلود الأثيوبيه للانضمام لمعسكر المعارضة هناك ، وأكّد هذا الشاهد أن الأهالى بقرية أونسنه قد تعرضوا لهم وأنهم انقسموا إلى مجموعتين بمجموعة تضم الإمام الهادى عبد الرحمن المهدى وابنه الفاضل الهادى عبد الرحمن والمرحوم سيف الدين الناجى و محمد أحمد مصطفى وعمر مصطفى ومجموعة ثانية فيها شاهد الاتهام الثاني محمد صادق الكارورى وعباس أحمد عمر وعز الدين الشیخ عبد المطلب بابكر ، المجموعة الأولى بقيادة الإمام الهادى عبد الرحمن المهدى تحركت لداخل الغابة وبقيت المجموعة الثانية لشغل الأهالى الذين تحرشو بهم ابتداءً . وفي أثناءبقاء المجموعة الثانية مع الأهالى بجوار قرية أونسنه وصلت فرقه من الشرطة بقيادة الملازم مختار طلحه و قامت بأسر المجموعة الثانية وتركوا عليهم حراسة ثم توجهوا راجلين إلى داخل الغابة ، وبعد مضى زمن قليل من تحرك رجال الشرطة إلى داخل الغابة سمعت المجموعة الثانية صوت طلق ناري ، وبعد قليل أحضر لهم رجال الشرطة الفاضل الهادى المهدى وعمر مصطفى وعند استفسار المجموعة الثانية لمن انضم إليهم من الأسرى أفادوهم بأن الإمام الهادى قد أصيب بمقذوف ناري . وقد أكد شهود

الاتهام الخامس أحمد سكاف قطية والرابع الأمين مصطفى إدريس أن كلاً من الفاضل المادى المهدى وسيف الدين الناجي أكدا أن المصاب هو الإمام المادى المهدى . وقد أيد هذه الروايات شهود الاتهام الثامن عثمان عبد الجيد والعشرون حسن الحاج فضل الله ، وبما أن سيف الدين الناجي و محمد أحمد مصطفى قد قتلا والفضيل المادى المهدى وعمر مصطفى قد توفيا فإن البيبة المنقوله عنهم بالتعرف على الإمام المادى المهدى وهو شخصية مرموقة آنذاك تعتبر بينة مقبولة في قانون الإثبات لتأكيد وفاة الإمام . وكذلك فإن الرواية النقلية التي ذكرها شاهد الاتهام الثاني محمد محمد صادق الكارورى على لسان الفاضل المادى عبد الرحمن وعمر مصطفى تكفى لإثبات أن الشخص المصاب هو الإمام المادى المهدى . فضلاً عن ذلك فإن البيبة وردت متواترة ومتناسكة بأن المرحوم المادى عبد الرحمن بعد إصابته بالطلق النارى توفى في مسرح الحادث بعد زمن وجيز متأثراً بالنزيف الناجم عن الجرح . وقد أكدا شهود العيان حضور المتهم أحمد حسين بامسيكة إلى مسرح الحادث وأكلاوا واقعة ضربه للمرحوم سيف الدين الناجي بثلاث رصاصات من مسدس كان يحمله عندما كان الأخير يجلس بجوار جثمان الإمام المادى المهدى . كما ستفصل فيما بعد عند التعرض لمسؤولية كل منهم على حدة . بقى أفراد الشرطة في حراسة الجثتين والشخص الحي وهو محمد أحمد مصطفى حتى أتى أفراد القوات المسلحة ليلاً واستلموا الجثث والشخص الحي بقيادة شاهد الاتهام الثالث عشر الرفاعى عمر . وقد أكدا هذا الشاهد أن التعليمات التي صدرت له هي أن يأخذ الجثتين والأسير إلى الدمازين وفي طريقه إلى الدمازين التقى باللازم تيراب الغالى بمنطقة باو الذى أكدا له أن التعليمات الواردة من الخرطوم تقضى بقتل الأسير ودفن الجثث . وأكدا هذا الشاهد وشاهد الاتهام الثاني عشر صديق أبو الحسن أن المرحوم محمد أحمد مصطفى قد أعدم رمياً بالرصاص وتم حفر مقبرتين ودفن الإمام المادى المهدى في إحداهما بالعنقريب الذى حمل عليه ، وتم دفن الجثتين الأخرىين في المقبرة الأخرى . وقد أكدا شهود الاتهام مكان دفن الإمام المادى ومكان دفن المرحومين الآخرين قبل النبش . وقد أكدا المتحرى شاهد الاتهام

الثالث ذلك وأكَد حضوره للتبش بواسطة الطبيب الشرعي شاهد الاتهام الحادى والعشرين . وبعد تبشن الجثث الذى تم باستخدام لودر لترامك الأتربة ، اتضَّح أن القبور كانت بنفس الوضع الذى حدده شهود الاتهام . وثبت كذلك أن الإصابات التى لحقت بأجساد المجنى عليهم متطابقة على النحو الذى ذكره شهود الاتهام قبل التبش فى نفس الواقع بالتحديد . وقد أكَد شاهد الاتهام الحادى والعشرون (الطبيب الشرعى) ذلك وأكَد أن الهياكل لآدميين . وقدمت فى هذا الصدد مستندات الاتهام الخامس عشر وال السادس عشر . فضلاً عن المستندات (١٧) وهو عبارة عن شريط فيديو استغنت المحكمة عن مشاهدته .

إن تسلسل البيانات فى هذه المسألة وردت متواترة بدرجة لا تحتمل أى شك أو مظنة وهى تقطع بوفاة الإمام الحادى عبد الرحمن المهدى والمرحومين سيف الدين الناجى ومحمد أحمد مصطفى . وإذا جاز لنا أن نعلق على تلك الحوادث فهى بلا شك صورة مثل للفوضى وغيثة حكم القانون وحرق صريح لمبادىء حقوق الإنسان وحق الفرد فى المثلول أمام محكمة عادلة مختصة . وأن إفلات بقية الأسرى من القتل ونقلهم من الدمازين إلى الخرطوم بالطائرة كان من قبل العناية الإلهية ومحض مصادفة حيث أنهم لم يكونوا في العربة التى حملت الجثث والأسير محمد أحمد مصطفى ، وأن سلوك بعض الأفراد المسؤولين عن هذا الحادث يعد إدانة للنظام السابق حيث خرج عن عباءته عدد من дكتاتورين الصغار نصبوا من أنفسهم قضاة وجلادين ونفذوا حكم الإعدام دون تردد أو رحمة ، ولم تتمكن الشرطة من مجرد فتح البلاغ للسرية التى أحاطت بها العملية حتى إماتة اللثام عنها بواسطة لجنة التحقيق . ونود أن نختتم هذه المقدمة بأن الاتهام والدفاع كانوا خير عون للمحكمة ، وتشيد المحكمة بجهودهم وصبرهم في التعامل مع هذه القضية والتى جمعت أشتات بياناتها بجهد ومشقة بعد مضى أكثر من سبعة عشر عاماً من وقوعها وشاءت العناية الإلهية أن تبقى بياناتها حاضرة بدرجة مذهلة .

كما سبق أن أشرنا فقد قدم المتهمون الخمسة للمحاكمة تحت المواد ٢٥١ ، ٢٥١/٨٤ و ٢٥١/٧٩ من قانون عقوبات السودان لسنة ١٩٢٥م ، وقد

- ١١٩ -

فصلت التهم في مواجهتهم وفقاً للفصل الثامن عشر من قانون الإجراءات الجنائية لسنة ١٩٨٣م . وللوصول إلى قرار عادل ودقيق في إجراءات هذه القضية يتعين أن تناقش المحكمة مسؤولية كل منهم على حدة وذلك تأسيساً على البيانات التي وردت في مواجهته حسب ترتيب المتهمين ، وقبل الخوض في مناقشة البيانات يتعين الإشارة إلى بعض الواقع التي اعتبرت سير الإجراءات .

وأولى هذه الواقع هي : أن البلاغ الحالى قد أقيم ضد المتهمن بتاريخ ١٦/٤/١٩٨٧م بواسطة لجنة التحقيق حول ظروف وملابسات مقتل الإمام الهاوى المهدى وأخرين المفروضة من قبل النائب العام ، وقد تم فتح البلاغ في مواجهة سبعة من المتهمين إلا أن جهات الضبط القضائى لم تتمكن من إحضار أحد هؤلاء المتهمن وهو المتهم جعفر محمد ثميرى رئيس الجمهورية السابق وقد قامت المحكمة بفصل إجراءات محاكمته .

وثانية هذه المسائل : هي أن المتهم مختار طلحة قد أطلق سراحه إعمالاً لنفس المادة (١٦٥) من قانون الإجراءات الجنائية لسنة ١٩٨٣م لأن المحكمة لم تر وجهاً لتوجيه التهمة الجنائية ضده . وكذلك يتعين التنويه إلى أن إجراءات سماع هذه القضية قد اعترافها الكبير من العسر والمشقة فى إحضار الشهود . ويعزى ذلك لنفرقهم فى أنحاء السودان المختلفة وخارج السودان وذلك لطول المسافة بين وقوع الأحداث وبداية التحقيق فيها .

المتهم الأول : عبيد كمال الأمين :

لتتحديد موقف هذا المتهم يتعين أن تستوف المحكمة عناصر المادة ٢٤٨ ، من قانون عقوبات السودان ، والأسئلة المطروحة كالتالى :

أولاً : هل قام المتهم بإطلاق عيار نارى على الفخذ الأيمن للمرحوم الهاوى عبد الرحمن المهدى ؟ الإجابة نعم . لقد أقر المتهم بإطلاقه للعيار النارى الذى أصاب المرحوم فى فخذه الأيمن أعلى الركبة وفضلاً عن إقراره فقد أكد هذه الواقع شهود الاتهام الخامس أحمد سكاف قطيبة والثامن عثمان عبد المجيد . وقد جاء فى أقوال شاهد الاتهام الخامس أنه بينما كان يقوم بتفتيش أحد المقبوض

عليهم وهر بالتحديد الفاضل المادى عبد الرحمن بدأ الأخير في مقاومة إجراءات التفتيش وتدخل لحظتها المتهم السابق - مختار طلحه وكان يحمل مدفع استرلنق وفي الحال تخلى المدعي الفاضل المادى عن مقاومته لشاهد الاتهام الخامس وبدأ في منازعة مختار طلحه في المدفع الذي كان يحمله وأنباء هذا الشد والجذب ذكر شاهد الاتهام الخامس أنه سمع صوت طلق نارى بعد محاولات تنبية من أحد أفراد قوة الشرطة ، وعندما اتجه ناحية صوت الطلاق النارى شاهد الإمام المادى يسقط أرضاً ، وبالسؤال عما حدث أفادهم المتهم عبيد كمبال الأمين بأنه هو الذى أطلق العيار النارى وقد أيد هذه الواقعية المتهم السابق مختار طلحه على صفحة ٣٤٥ من محضر المحاكمة . أما شاهد الاتهام الثامن فقد أكد رؤيته لواقعة الضرب وذلك على صفحة ١٧٥ من محضر المحاكمة . وعليه فإننا نخلص إلى أن المتهم الأول هو الذى أطلق العيار النارى الذى أصاب فخذ المرحوم الإمام المادى المهدى .

ثانياً : هل سبب الإصابة وفاة المرحوم ؟ الإجابة نعم . لقد أكد شهود الاتهام الحاضرون في مسرح الحادث أن المجني عليه وب مجرد أن أصابه الطلاق النارى سقط أرضاً وبدأ ينزف الأمر الذى دفع بعضهم إلى محاولة ربط الجرح بالعمامة ، وكذلك فإن ضابط الشرطة حاول الاتصال بمدينة الكرمك لإسعافه والثابت من بيات شهود العيان أن المجني عليه توفى بعد وقت وجيز من إصابته بالطلاق النارى . وقد جاء في تقرير الطبيب الشرعى أن الإصابة التى أصيب بها الإمام المادى هي التي سببت الوفاة ، انظر في ذلك مستند الاتهام الثالث . صحيح أن مسألة تحديد سبب الوفاة بعد مرور هذه الفترة الطويلة ودون الكشف على الجثة في وقت الحادث يعد أمراً شائكاً للغاية ، إلا أن المسألة في رمتها أمر تقرر فيه المحكمة ، والواضح من البيانات المنقولة من مسرح الحادث أن المرحوم بمجرد إصابته بدأ في النزف حتى توفى ، وقد ألقى الطبيب الشرعى شاهد الاتهام المادى والعشرون الضوء على أسباب تقريره الطبي على صفحة ٣١٧ من محضر المحكمة حيث ذكر (أن القاعدة هي أنه إذا وجد ضرر كلى في عظام وهناك ما يشير إلى حيويته مع عدم وجود ضرر في أى من العظام

- ١٢١ -

الأخرى يستطيع الطبيب أن يربط بين الضرر وسبب الوفاة وخاصة إذا كان الضرر ذات حيوية بالنسبة للإصابة . في تقدير المحكمة أن هذا التسبب مفزع بجانب ظروف الوفاة التي أشرنا إليها ومن واقع إفادات شهود الاتهام . وعليه تقرر المحكمة بأن الوفاة نتجت عن الإصابة التي ألحقها المتهم بالمرحوم .

ثالثاً : هل كان المتهم يقصد تسبب وفاة المرحوم أو كان يعلم بأن موته سيكون نتيجة راجحة وليس فقط نتيجة محتملة لفعله ؟

في تقدير المحكمة أن مسألة القصد أمر لا يمكن الوقوف عليه بغير استجلاء الظروف والملابسات التي صاحبت الحادث ، الواضح من البينة أن المتهم بعد أن حذر المرحوم بعبارات (يازول هو) أطلق عياره النارى الذى أصاب فخذ المرحوم الأيمن ، وإذا وضعنا فى الاعتبار بأن المتهم شرطى نظامى يفترض فيه أنه ماهر فى التصويب ، فإن إطلاقه لهذا العيار وفى الفخذ ينتفى معه عنصر قصد تسبب الموت وينتفى معه العلم بأن الموت سيكون النتيجة الراجحة للفعل وذلك لأن الإصابة لم تستهدف جزءاً حيوياً من الجسم الإنساني . حيث أشار شاهد الاتهام الحادى والعشرون - الطبيب الشرعى - بأن الأجزاء الحيوية بالجسم الإنسانى هي الصدر والرأس (انظر أقواله على صحفة ٣١٧ من المحضر) وفضلاً عن ذلك فإن ما استقر عليه فقه القضاء السودانى وفي قضية حكومة السودان ضد كمال الجاك المنشورة بالجملة القضائية ١٩٦٥ على صحفة ٦٥ - استقر الفقه بأن الأجزاء الحيوية في الجسم الإنسانى هي الرأس والصدر والبطن ، وبما أن الإصابة الحالية استهدفت فخذ المجنى عليه فإن النتيجة التى حدثت هي نتيجة محتملة وليس نتيجة راجحة لأن المجنى عليه إذا لم يمت فإن هذا سوف لن يثير دهشة الرجل العادى (انظر كذلك حكومة السودان ضد سبت الجاك دىق المجلة ١٩٧٦م صفحة ٧٢٢) وعليه تقرر المحكمة بأن عناصر المادة ٢٤٨ من قانون العقوبات لسنة ١٩٢٥ م منطبقه بصورة مبدئية في حلود المادة ٢٥٣ من قانون عقوبات السودان لسنة ١٩٢٥ م . والآن توجّب على المحكمة فحص دفع المتهم وستبدأ بأسباب للإباحة بحسب ما استقر عليه فقه القضاء السودانى .

- ١٢٢ -

لقد نصت المادة ٥٥٠ عقوبات لسنة ١٩٢٥ م بأنه لا جريمة من فعل وقع عند استعمال حق الدفاع الشرعي استعمالاً مشروعاً وقد حوت المادة ٥٦ من قانون عقوبات السودان لسنة ١٩٢٥ م للأشخاص الحق في الدفاع عن أنفسهم وعن غيرهم وعن أموالهم بشرط خاصة . أما عن الحق في الدفاع الذي يسبب الموت فقد أورده الماده ٦١ - المشار إليها في القانون - في أحوال محددة وردت على سبيل المحصر . وما يعنيها في هذه القضية هو الفقرة (أ) من المادة ٦١ المشار إليها حيث نصت على الآتي (مع مراعاة القيود المنصوص عليها في المادتين ٥٨ ، و ٥٩ لا يمتد حق الدفاع الشرعي عن الجسم إلى تعمد تسبب الموت إلا إذا كان الفعل المراد دفعه من الأفعال الآتية :

(أ) (اعتداء يخشى أن يحدث منه الموت أو الأذى الجسيم إذا قامت هذه الخشية على أسباب معقولة) .

إلى آخر النص . والسؤال المطروح هو : هل نشأ للمتهم الأول الحق في الدفاع الشرعي بالقدر الذي يبرر تسبب الموت ؟

أعتقد أن الإجابة يجب أن تكون بالإيجاب ، فقد أكد شاهد الاتهام الخامس أن المجنى عليه لم يكن يحمل سلاحاً قبل الواقعه . وبعد أن تم الشجار حول المدفع الذي يحمله مختار طلحه وسماعه للتبنيه وصوت العيار الناري شاهد مسدساً في يد المجنى عليه ، وهذا يؤكّد أن المرحوم قد شهر مسدسه متهدراً فرصة العراك الذي دار بين ابنه والمتهم السابق . مختار طلحه وشاهد الاتهام الثامن عثمان عبدالجبار أكد رؤيته للمجنى عليه عندما أخرج مسدسه وشهره تجاه الضابط مختار طلحه وأكّد الشاهد أن المتهم الأول نبه المجنى عليه وحذره عدة مرات ولما لم يستجب أطلق عليه العيار الناري موضوع الاتهام في رجله . إن توجيهه سلاح ناري إلى أي شخص ينشيء تخوفاً معقولاً من حدوث الموت أو الأذى الجسيم على أقل تقدير ، وبالتالي فإننا يمكن أن نقول وبكل اطمئنان بأنه قد نشأ حق للدفاع الشرعي عن الغير وربما النفس بالنسبة للمتهم الأول ، وأن إطلاقه للنار تجاه المجنى عليه أمر يبرره القانون سواء كان ذلك دفاعاً عن رئيسه

- ١٢٣ -

الأعلى أو كان دفاعاً عن نفسه لأنه يتصور ألا يقتصر إطلاق النار على فرد واحد من القوة . ونعتقد أن المتهم لم يتجاوز حقه في الدفاع الشرعي حيث استخدم عياراً نارياً واحداً ووجهه في موضع لا يرجع معه حدوث الوفاة بل فإن مقدار ما بذل من نشاط لرد هذا الاعتداء يعد نشاطاً معقولاً تجاه اعتداء بسلاح ناري أقل ما يتبع عنه هو الأذى الجسيم إن لم يكن الموت .

كذلك فإنه لم يكن متاحاً للمتهم اللجوء للسلطات لأنه وزملاء الآخرين هم السلطة المنوط بها رد الاعتداء عن الآخرين ووجلوا أنفسهم في موقع المدافع .

وعليه وبما أنها خلصنا إلى أن حق الدفاع قد نشأ للمتهم الأول واستخدمه وفقاً للضوابط المخصوص عليها في المادة (٦١) من قانون العقوبات دون إخلال بالقيود المخصوص عليها في المواد ٥٧ و ٥٨ من ذات القانون فإننا نقرر تبرئة ساحة المتهم من التهمة المنسوبة إليه تحت المادة ٢٥١ من قانون عقوبات السودان .

المتهم الثاني : أحمد حسين بامسيكة :

والأسئلة المطروحة بشأنه كما يلى :

أولاً : هل قام المتهم بإطلاق ثلاثة أعيرة نارية بصدر المرحوم سيف الدين الناجي ؟ الإجابة نعم . فإنه رغم إنكار هذا المتهم لواقعه توجيهه للطلقات الثلاث المشار إليها وزعمه أنه أطلق عياراً نارياً واحداً تجاه الكتف وقد وردت هذه الإفادة باعترافه القضائي ص ٣٦٥ عند استجوابه إلا أن هذه الأقوال تخالف الواقع ، وذلك لأنه بعد أن نيش الجثث لم توجد إصابة بكتف المرحوم سيف الدين الناجي والذي أمكن التعرف عليه عن طريق بقية متعلقاته التي دفنت معه فضلاً عن طبيعة الإصابات التي وصفها شهود العيان والتقرير الطبي مستند الاتهام (٦) . ليس هذا فحسب بل اتضح بعد إجراء البش أن هناك طلقة نارياً لمسدس عيار (٩) ملم مستقرأً بالصدر وتوكد البيانات بما لا يدع مجالاً للشك أن جميع أفراد قوة الشرطة كانوا يحملون بنادق ماركة (٤) وأن

- ١٢٤ -

الشخص الوحيد الذي كان يحمل مسدساً حكومياً هو المتهم وكأن هذه الطلقة بقيت لمدة ١٧ عاماً على هيكل المرحوم لتشهد على المتهم أحمد حسين بامسيكة . وقد أكد شهود العيان و منهم شاهد الاتهام الرابع الأمين مصطفى إدريس واقعة إطلاق المتهم أحمد حسين بامسيكة للطلقات الثلاث إلى صدر المرحوم وأكد أن المتهم استخدم مسدساً في إحداث هذه الإصابات . وأكّد هذه الرواية شاهد الاتهام الخامس أحمد سكاف قطية والشاهد الثامن عثمان عبد الجيد وشاهد الاتهام العشرون حسن الحاج فضل الله . وبذلك نخلص إلى أن المتهم أحمد حسين بامسيكة أطلق ثلاث طلقات من مسدسه تجاه المرحوم سيف الدين الناجي .

ثانياً : هل سبب الإصابة وفاة المرحوم ؟ الإجابة نعم . لقد وجه المتهم طلقاته الثلاث إلى منطقة الصدر وهي منطقة حيوية من الجسم الإنساني بحسب ما استقر عليه فقه القضاء السوداني في السابقة التي أشرنا إليها وهي سابقة حكومة السودان ضد كمال الجاك . وأوضحت من التقرير مستند الاتهام السادس أن هناك أربعة آثار لطلقات اخترقت عظام الصدر وتنصir إلىطلق الرابع عند مناقشتنا لمسؤولية المتهم الثالث .

ولا شك أن توجيه طلقات نارية إلى منطقة الصدر ومن مسافة قرية لابد أن تؤدي إلى إحداث الموت سواء عن طريق تمزق أجزاء حيوية من منطقة الصدر أو إحداث نزيف يؤدي إلى الوفاة . وقد ثبت من أقوال شهود العيان أن المرحوم كان بحالة جيدة وعادية إلى أن أطلقته عليه هذه الأعيرة النارية والتي توفى على أثرها في الحال ، وعليه فإن المحكمة تقرر بأن الإصابات التي أحدثها المتهم الثاني أحمد حسين بامسيكة بالتضارف مع العيار الرابع أدت إلى وفاة المرحوم سيف الدين الناجي .

ثالثاً : هل كان المتهم يقصد تسبيب وفاة المرحوم أو كان يعلم بأن موته سيكون نتيجة راجحة وليس فقط نتيجة محتمله لفعله ؟ الإجابة نعم . لقد تغير المتهم منطقة الصدر وهي منطقة حيوية كما سبق أن أشرنا واستخدم المتهم

- ١٢٥ -

ل فعله سلاحاً نارياً لا يحتاج إلى شرح لخطورته وأطلق ثلاثة أعيর نارية إلى منطقة الصدر وهذا يكشف بجلاء عن قصد المتهم في إحداث الموت أو على الأقل فإنه كان يعلم أن الموت سيكون نتيجة راجحة لفعله ذلك ، وذلك لأن إصابة شخص بثلاثة أعيير نارية في منطقة الصدر وعن قرب إذا لم تؤد إلى الوفاة فإن هذا سيثير دهشة الرجل العادى ولا شك في ذلك . عليه تقرر المحكمة بأن سلوك المتهم لا يستشف منه سوى عنصر قصد إحداث الموت أو العلم بأن النتيجة التي حدثت هي الراجحة وليس فقط نتيجة محتملة .

يتضح مما تقدم أن عنصر المادة ٢٤٨ متوافر في حقه وعليه ينبغي على المحكمة أن تفحص دفعه المتهم المقدمة وستبدأ بأسباب الإبادة . والسؤال الذي يطرح نفسه هو : هل نشأ للمتهم حق في الدفاع الشرعى ؟ نجيب على هذا التساؤل بالنفي ، لقد حاول المتهم أن يثبت بأن هنالك اعتداء عليه من قبل المرحوم حيث ذكر بأنه كان متبيجاً وهاجمه بخنجر إلا أن هذه الأقوال تدحضها أقوال شهود العيان الذين أكدوا أن المجنى عليه رغم أنه كان متبيجاً إلا أن هياجه كان يقتصر على التكبير ولم يهاجم أحد وكان جالساً على الأرض أعزل ولا يحمل أى سلاح وقد قال شاهد الاتهام الرابع أنه فتش المرحوم سيف الدين الناجي شخصياً قبل الواقعة وأمر زميله عمر بخيت بتجريده من خنجر كان يلبسه بوسطه وقد تم ذلك قبل وصول المتهم . وعليه فإن ادعاءات المتهم بأن المرحوم قد هاجمه بخنجر هي محض افتراءات لا يوجد أى دليل يدعمها بل إن كل الأدلة تؤكد عكس ذلك . وعليه ففى تقدير المحكمة أنه لم ينشأ حق الدفاع الشرعى لأنه لا يوجد أى اعتداء من قبل المرحوم يؤدى إلى الخشية من وقوع الموت أو الأذى طبقاً لنص المادة (٦١) من قانون العقوبات لسنة ١٩٢٥ م ، مع الوضع فى الاعتبار أن المجنى عليه كان فى أسر الشرطة وتحت حمايتها قانوناً .

إذن . هل يستفيد المتهم بأى دفع من الدفوع الواردة في المادة ٢٤٩ ، من قانون عقوبات السودان لسنة ١٩٢٥ م ؟

- ١٢٦ -

الإجابة بالنفي . في تقديرنا أنه لا يوجد أى استثناء من استثناءات المادة ٢٤٩ من قانون العقوبات . وجدير بالمناقشة في هذه القضية حيث لم تورد البيانات أية حالة من الحالات الست الواردة في النص . لقد حاول الدفاع أن يشير إلى حالة الاضطراب العقلى بالنسبة للمتهم إلا أنه فشل في تقديم أية بينة تؤيد هذا الدفع ولذا فهو دفع مرفوض من قبل المحكمة .. بالنسبة للدفع الآخرى فإن محامي المتهم متمسك بأن المتهم ينتمى إلى قوة نظامية وأن قانون الإعفاءات لسنة ١٩٧٧م ينطبق عليه باعتباره كان يدافع عن الثورة واستشهد محامي المتهم بالمادة (٣٣) من قانون الحكم الشعوى الحالى والتى تنص على الآتى : (يشكل الضباط الإداريون العاملون بوزارة الحكومة المحلية بما فى ذلك المنتدبون منها للعمل خارج وحداتها الميدانية والمهنية جهازاً نظامياً مركزياً منضططاً بعمل من أجل تنمية البلاد وتحديثها وخدمة جماهيرها) . في تقديرنا أن التعريف الذى يعتمد عليه مثل الدفاع لا يعني أن المتهم ينتمى للقوات النظامية لأن القانون الذى استشهد به نفسه لا يشير إلى أن فئة الضباط الإداريين هم قوة نظامية بل عرفهم قانونهم بأنهم جهاز نظامي ومنضبط ، وهذا الوصف قد ينطبق على كثير من الطوائف المنظمة الأخرى كفرق الكشافة مثلاً إلا أن هذا لا يعني بالضرورة أنهم قوة نظامية لأن القوات النظامية في السودان معروفة لدرجة العلم القضائى وتشمل القوات المسلحة وقوات الشرطة والسجون والمطافئ وحرس الصيد دون غيرهم . وبالتالي فإن الإعفاءات لسنة ١٩٧٧م لا ت適用 على المتهم وبفرض أن المتهم ينتمى إلى قوة نظامية فإن الفعل الذى أثاره لا يدخل فى معنى الحماية الواردة في القانون لأن تلك الحماية قد توفرت بسيطرة رجال الشرطة على المرحوم وزملائه ، وأن ما قام به المتهم هو مجرد اعتداء إذ أخذته العزة بالإثم وقام بقتل المرحوم الذى كان أعزل وأسيراً لا حول له ولا قوة .

لخلص مما تقدم بأن مأثاره المتهم الثاني محمد حسين بامسيكة يوقعه تحت طائلة المادة ٢٥١ من قانون عقوبات السودان لسنة ١٩٢٥ .

أما بالنسبة للتهمة الموجهة له تحت المادة ٢٥١/٨٤ من قانون عقوبات السودان . فإن التحريض يتواافق بإثبات أحد الأفعال المنصوص عليها في المادة ٨٢ هى :

- ١٢٧ -

(أ) أن يغرى غيره على إتيان ذلك الشيء .

أو (ب) يشترك مع شخص آخر أو معأشخاص آخرين في اتفاق لارتكاب ذلك الشيء .

أو (ج) يساعد قصداً على ارتكاب ذلك الشيء أو يسهل ارتكابه قصداً وذلك بفعل أو امتناع مخالف للقانون .

فهل حرص المتهم الثالث وداعمة على سيد أحمد على إطلاق النار على المرحوم؟ الإجابة نعم. فقد أكد شاهد الاتهام الرابع الأمين مصطفى إدريس بأن المتهم الثاني أحمد حسين قد أمره بضرب المرحوم للإجهاز عليه بعد أن وجه له الطلقات الثلاث الأولى إلا أن الأخير رفض ذلك، ثم وجه نفس التعليمات للمتهم الثالث وداعمة على سيد أحمد الذي امتنع لهذا الطلب وأطلق عياراً نارياً واحداً من بندقيته التي كان يحملها على صدر المرحوم، وقد أكد هذه الرواية شاهد الاتهام العشرون حسن الحاج فضل الله على صحيفة ٢٩٣ من محضر المحكمة. إن إعطاء مثل هذا الأمر لشخص على مستوى المسؤولية ينطوي على عنصر الإغراء لإتيان الفعل وفقاً لأحكام المادة ٨٢ (أ) من قانون العقوبات لسنة ١٩٢٥ م وبالتالي فإن المحكمة تجد المتهم مذنباً تحت المادة ٢٥١/٨٤ من قانون العقوبات .

المتهم الثالث : وداعمة على سيد أحمد :

الأسئلة المطروحة فيما يتعلق بالتهمة الموجهة إليه كالتالي :

أولاً : هل أطلق المتهم عياراً نارياً من بندقيته على صدر المرحوم سيف الدين الناجي؟ الإجابة نعم. رغم إنكار المتهم لإطلاقه للعيار الناري الذي وجه إلى صدر المرحوم سيف الدين الناجي إلا أن شهود الاتهام أكدوا عكس ذلك، فقد أكد شاهد الاتهام الرابع أن المتهم وداعمة سيد أحمد أطلق عياراً نارياً أصحاب به صدر المرحوم سيف الدين الناجي، وذلك بعد أن أمره المتهم الثاني أحمد حسين بأن يفعل ذلك، وقد أكد هذه الرواية شاهد الاتهام العشرون

- ١٢٨ -

حسن الحاج فضل الله . وقد أكد الشاهدان أن الطلقي الناري كان بمنطقة الصدر ، وعليه فإن البيينة كافية بما لا يدع مجالاً للشك بأن المتهم وداعية على أطلق عياراً نارياً في صدر المرحوم سيف الدين الناجي .

ثانياً : هل تسبب المتهم في وفاة المرحوم ؟

في تقدير المحكمة أن الإجابة يتبعن أن تكون بالإيجاب . فقد ثبت أن المتهم أطلق عياراً نارياً إلى منطقة صدر المرحوم من بندقتيه ماركا (٤) بعد أن أطلق عليه المتهم الثاني أحمد حسين ثلاث طلقات قبلها بقليل حيث أكد شهود الاتهام ذلك وبالوجه الذي استعرضناه من قبل وعليه فإن تضافر الإصابات الأربع قد أدت للوفاة ، وصحبيح أن المحكمة لا تستطيع أن تجزم بأى إصابة كانت الوفاة إلا أنه ما لا شك فيه أن جراح الصدر التي أحدها المتهما هي التي أدت إلى الوفاة حسب التقرير الطبي رقم (٦) الذي سبقت الإشارة إليه ، وذلك بالاستناد على المادة ٧٩ من قانون عقوبات السودان التي وجهت بها التهمة .

ثالثاً : هل كان المتهم يقصد تسبب وفاة المرحوم أو كان يعلم بأن موته سيكون نتيجة راجحة وليس فقط نتيجة محتملة .

لمناقشة هذا العنصر يتبعن الاتهام بنص المادة ٧٩ من قانون عقوبات السودان لسنة ١٩٢٥ . لقد جاءت صياغة النص كالتالي : إذا ارتكب عدة أشخاص فعلاً يعتبر جنائياً مجرد أنه ارتكب عن علم جنائي أو بقصد جنائي ، كان كل من اشتراك منهم في هذا العمل بنفس العلم أو القصد مسؤولاً عنه كما لو كان قد ارتكبه بوحده بنفس العلم أو القصد) .

واضح من البيانات أن المتهم الثاني أحمد حسين بعد أن وجه طلقاته الثلاثة لصدر المرحوم أمر المتهم الثالث وداعية على سيد أحمد للإجهاز عليه وقام المتهم وداعية بتنفيذ التوجيهات وأطلق عياراً نارياً إلى صدر المرحوم وما لا شك فيه أن فعل المتهم الثاني يعد فعلاً جنائياً وارتكب عن علم جنائي وبقصد جنائي كما أسلفنا وعليه فإن اشتراك المتهم الثالث وداعية على سيد أحمد كان بنفس العلم والقصد ويكن أن يستشف ذلك بسهولة من طبيعة السلاح المستخدم في

- ١٢٩ -

الحادث وموقع الإصابة في صدر المجنى عليه وقد قررت السابقة القضائية حكومة السودان ضد أبوراس تيراب وآخرين المجلة القضائية ١٩٦١ صفحة ١١٧ ما يلى :

* Whenever an act which is criminal offence only reason of its being done with a criminal knowledge or intention by several persons, each of such persons who joins in the act with such knowledge or intention is liable for the act in the same manner as if the act were done by him alone with that knowledge or intention.*

وكان المتهمون أربعة في هذه القضية ذهب منهم اثنان وانتعلا شجارة مع المرحوم وبدأ في ضربه بالعصى التي كانا يحملانها وعلى إثر ذلك تدخل المتهمان الثالث والرابع واشتركا في الضرب حتى أحدثوا إصابات التي أدت إلى نزيف داخلي أدى إلى الوفاة لم يكن معروفاً لدى المحكمة أى من المتهمين هو الذي سبب الإصابات القاتلة التي رصدت بجسده المجنى عليه ومع ذلك تأيدت إدانتهم جميعاً تحت المادة ٢٥١ تأسيساً على المادة ٧٩ ، وقد أيد مولانا محمد إبراهيم النور قرار المحكمة الكبرى بالتسبيب الآتي :

* in my view, therefore, the court was quite right in finding the offence of murder under penal code section 251 for causing the death of abdu Abdel Karim by jointly beating him with heavy Ukhazezs, knowing at that time of the act that death would be the probable consequence.*

إذا نظرنا لموضوع الإصابات التي أحدثها هذا المتهم بمعية المتهم أحمد حسين نجد أن مجموعة ما أحدثه تسبب في وفاة المرحوم دون أن تيسر للمحكمة معرفة أى من الإصابات هي التي أودت بحياته ومع ذلك وتأسيساً على المادة ٧٩ من قانون عقوبات السودان لسنة ١٩٢٥م ، فإن ما استخدمه المتهمون من سلاح وما اختاراه من مساحة في جسد المجنى عليه يثير القول بأن الموت كان نتيجة راجحة في علم كليهما وبالتالي فإننا نرى أن عناصر المادة ٢٤٨ منطبقه في حق المتهم وداعمه على سيد أحمد .

بالنسبة لأسباب الإباحة فمن الواضح أن الدفاع يثير دفعاً بالمادة ٤ من قانون عقوبات السودان لسنة ١٩٢٥ على أساس أن المتهم كان ينفذ

- ١٣٠ -

تعليمات رئيسه الأعلى وهو ضابط الشرطة مختار طلحة للقبض على المتهمن ، كما أنه عند إتيانه للفعل كان ينفذ أمراً قضائياً صادراً له من المتهم الثاني أحمد حسين باسميه باعتباره قاضياً . وبالنسبة للشق الأول من القضية والمتصل بتنفيذ تعليمات الرئيس الأعلى نعتقد أنه لا وجه لإثارته لأن الرئيس الأعلى لم يكلف المتهم بالتوجه لمكان المجموعة الأولى من المعتقلين الذين تم القبض عليهم بواسطة مواطنى قرية أونسه . وقد ذهب المتهم إلى المجموعة الثانية تطوعاً وبعد سماعه لصوت الطلقة الأولى ، وقد أكد هذه الرواية شاهد الاتهام الرابع الأربعين مصطفى إدريس على صحيفة ١٦٧ من محضر المحاكمة وبالتالي يسقط هذا الشق من الادعاء . أما بالنسبة للأمر الصادر من المتهم الثاني أحمد حسين فيمكن مناقشته على ضوء المادة ٤٤ (أ) من قانون العقوبات . جاء في هذا النص ما يلى :

(لا يعد الفعل جريمة إذا وقع من شخص ملزم قانوناً بالقيام به أو يقره القانون على فعله) فهل كان المتهم ملزماً قانوناً بتنفيذ أمر المتهم الثاني ؟ نعتقد أن الإجابة بالنفي ، لأن المتهم أحمد حسين مجرد ضابط إداري وهو ليس رئيساً للمتهم ولو كان رئيس لجنة الأمن لا يجوز أن يتلقى منه أمراً . كذلك لا يوجد أى قانون يخول القاضى - بفرض أن أحمد حسين كان لديه سلطات قاضى - أن يأمر أى شرطي أو خلافه أن يقتل أعزل والحالة الوحيدة التي ألزم فيها القانون رجال الشرطة أو القوات المسلحة الانقياد لأمر القاضى باستخدام القوة هى حالة التجمهر غير المشروع بموجب المادة ١٠١ من قانون الإجراءات الجنائية لسنة ١٩٨٣م ويقابل المادة ٧٩ من قانون الإجراءات الجنائية لسنة ١٩٢٥ الذى كان سائداً وقت وقوع الحادث . وحتى هذه المادة لم تخول للقاضى ولا للشرطي المتلقى للأمر بتجاوز أقل قوة لازمة لتفريق التجمهر . وعليه فإذا صح أن المتهم الثاني كان يضطلع بسلطات قاضى فإن الأمر الصادر منه غير ملزم للتهم الثالث وداعمه على سيد أحمد قانوناً ، ولعل وضوح هذه المسألة بالنسبة للشخص العادى وضح جلياً لشاهد الاتهام الرابع الذى رفض الأمر صراحة واتفق مع مثل الاتهام بأن سابقة حكومة السودان ضد اليو دينق المنشورة بمجلة

الأحكام القضائية لسنة ١٩٦١ صفحة ٣٣ تشرط فعلاً وجوب أن يكون الفعل ملزماً للمتهم قانوناً الإتيان به أو أن القانون يقره، ولم أجده في قانون الإجراءات الجنائية أو قانون الشرطة بندًا يجعل المتهم ملزماً بأمر المتهم الثاني لتوجيه الرصاص لشخص أعزل تحت حراسة أفراد من الشرطة مدججين بالسلاح والعتاد .

في رأينا أن المادة (٤٤) لا انطباق لها فيما يتعلق بموقف المتهم وداعمة على سيد أحمد . أما بالنسبة لقانون الإعفاءات لسنة ١٩٧٧ ، إذ أن النص منع إقامة الدعوى الجنائية أم المدنية أو التحاذ أى إجراء قانوني ضد أفراد القوات النظامية من الأفعال التي ارتكبواها في الفترة من ٢٥ مايو ١٩٦٩ حتى ١٩٧٧/٨/٢٧ ، إذا كانت هذه الأفعال قد بوشرت بغرض حماية الدستور أو القانون أو المؤسسات أو النظام القائم آنذاك أو لحماية مبادئ الثورة ومؤسساتها أو من أجل تحقيق الضبط والربط داخل القوات النظامية أو لحماية الخدمة العامة أو لأى غرض آخر متصل بالصالح العام ، وفي رأينا أن ما قام به المتهم لم يرم إلى حماية الدستور أو القانون بل هو خرق صريح لمبادئ القانون وحقوق الإنسان ، إذ أن جميع الشرائع لا تبرر قتل الأسير الأعزل ، حتى لو قلنا أن الفعل كان لحماية النظام الذى أقامته الثورة فإن هذا لا ينطبق إذا حصل الفعل أثناء عراك أو مقاومة أو رفض الاستسلام ، إلا أن القتل بعد الاستسلام والتجريد من السلاح لا يمكن أن يكون في معرض حماية النظام؛ لأن هذه الحماية الجزئية قد توافت بمجرد السيطرة على المعارضين للنظام . وإذا قلنا بغير ذلك فإن هذه دعوة صريحة ليسود قانون العاب ومبداً الغلبة للقوة . وواضح أن هذا الفعل لم يكن بغرض حماية المؤسسات ولا الخدمة العامة ولا الصالح العام بل كان مجرد شهوة للقتل ونيل رضى السلطة الحاكمة آنذاك وما قد يترتب على ذلك من ترقيات استثنائية .

عليه فإننا نقرر عدم استفادة المتهم من أية دفوع مثارة منه ونرى أن ما أثاره هو فعل مجرم بموجب المادة ٢٥١ من قانون العقوبات لسنة ١٩٢٥

- ١٣٢ -

المتهم : عبد الله إبراهيم حبيب الله :

السؤال المطروح هو هل حرض المتهم عبد الله إبراهيم حبيب الله على قتل المرحوم محمد أحمد مصطفى ؟

تقدّم لهذا السؤال بأن المتهم عبد الله إبراهيم حبيب الله كان الضابط الأعلى لحماية الدمازين ، والاتهام الموجه له هو أنه أصدر أمراً للمتهم تيراب الغالي نوار بإعدام الأسرى حسب إفادة بعض شهود الاتهام . ويعين أن نستعرض أقوال هؤلاء الشهود بشيء من التفصيل والتحقيق لأن الاتهام يعتمد على هذه الأقوال في إبرام مسؤولية هذا المتهم عن الحادث . بالنسبة للمتهم نفسه - أى عبد الله إبراهيم حبيب الله - أكد أنه استلم إشارة من الرئيس السابق جعفر محمد نميري تليفونياً بحسن دفع الله بدفن الموتى وإعدام الأحياء من الأسرى وجاء في إفادة المتهم أنه كان متربداً في إرسال هذه الإشارة لاعتبارات خاصة تربطه بالأشخاص المطلوب إعدامهم ، وذكر أنه تحمل مجازفة عدم تبليغ الأمر لحسن دفع الله ، وفي منتصف ليلة نفس اليوم وصل ملازم الاستخبارات حسن دفع الله إلى الدمازين والتقي بالمتهم عبد الله إبراهيم حبيب الله وواضح من أقوال المتهم أنه تناقش مع حسن أحمد دفع الله بشأن الأوامر الواردة من الخرطوم بشأن دفن الجثث وإعدام الأسرى ، وأبدى تبرماً حيال هذا الأمر وطلب من حسن دفع الله الاتصال بالقيادة لإيقاع الرئيس بعدم قتل الأسرى ، وفي هذه الأثناء اتصل الرئيس بهم مرة أخرى وسأل عما إذا كان الأمر قد نفذ أم لا ، ونفى له المتهم عمل شيء وأبلغ الرئيس بأن حسن دفع الله نفسه موجود معه وطلب الرئيس التحدث إلى حسن دفع الله وفعلاً بدأ الحديث معه وفعلاً نقل للرئيس وجهة النظر التي تناولت بعدم قتل الأسرى إلا أنه لم يعلم ما دار بينهم من الحديث وبعد الحادثة ذكر بأنه طلب إلى حسن أحمد دفع الله ليوضح ما يحتاج إليه وطلب منه الأخير عساكر ومعدات حفر لدفن الموتى بما فيهم الإمام الهاشمي ، هذه الأقوال تعني بأن المتهم الرابع حبيب لم يصدر أمراً مباشراً بإعدام القتلى حسب أقواله بل تفيد بأن دوره اقتصر على تبليغ حسن دفع الله بأوامر عسكرية محددة بدفن الجثث وإعدام الأسرى ولم يكتف بذلك بل طلب إلى

شاهد الاتهام الحادى عشر حسن أَحْمَد دفع الله بـأن يطلب إلى الرئيس تغيير أوامرها بإعدام الأسرى ، البيانات التى وردت ضد المتهم حبيب الله جاءت على لسان شهود الاتهام الحادى عشر حسن أَحْمَد دفع الله والثانى عشر صديق أبوالحسن والتاسع عشر محمد يوسف تلب . أما فحوى إفادة الشاهد الحادى عشر حسن أَحْمَد دفع الله فقد اقتصرت على أن عبدالله ذكر له العبارة الآتية : (الجماعة زى ما عارفين قالوا للراجل امسك الزول امسك الزول وضربوه من وراء) وذكر أنه استنبط من هذه العبارة أن أحد الأسرى فر وضرب من الخلف . واعتقد أن هذه الإلقاء لا تقدم شيئاً بالنسبة لقضية الاتهام حيث إنها عبارة مبهمة وغير دقيقة ولا تدل على أية واقعة محددة ولا تعنى أن هناك إقراراً بفعل معين ، هذا إضافة إلى أن الشاهد حسن أَحْمَد دفع الله شاهد غير مأمون الجانب وقد اعتبرت شهادته اختلافات جوهرية في كافة المراحل وفي نقاط يتعذر قبول السهو بشأنها ؛ وللتدليل على هذا النظر نستشهد بإفادته في التحرى التى زعم فيها أنه لم يقابل تيراب الغالى وجماعته في طريقه إلى الدمازين ليلة الحادث في حين أنه أُتى وأُكِد هذه المعلومة أمام المحكمة ، وأعتقد أن شاهداً يغفل مثل هذه النقطة الجوهرية من شهادته يعد شخصاً غير مأمون الجانب وليس ذلك فحسب بل إن بينة حسن أَحْمَد دفع الله ترقى لمستوى بينة الشريك الذى يحاول أن يزجع عباء الفعل عنه ويلقيه على عاتق غيره ، وأعتقد أنه ليس من المدهش حقاً إذا كان حسن أَحْمَد دفع الله نفسه متهمًا حتى تاريخ نهاية هذه المحاكمة ، لأن هنالك كثيراً من الواقع تلقى ظللاً كثيفاً من الشك حول دوره الفاعل حيال ما جرى من أحداث . وأعتقد أن بينة حسن أَحْمَد دفع الله يمكن الالتجاع فيها بما يضعفها للغاية إذا دققنا في موقفه حيال الأحداث التى جرت وما أظهره من جزع وخور تدلر به حتى أفراد الشرطة ، وأعتقد أن مثل هذا الشاهد سوف لن يكون في وضع يمكنه من تحمل الشهادة حيال هذه الأمور الجسم ، ولذا فإننا نطرح شهادته جانباً فيما يتعلق بموقف هذا المتهم . أما شاهد الاتهام الثانى عشر صديق أبوالحسن فلم يورد اسمه أية بينة تربط هذا المتهم بالواقعة وكل ما ورد في إفادته أن المتهم أصدر أمراً لتيراب الغالى بأخذ معدات

الدفن وهذا ما أكدته المتهم تيراب الغالي نفسه أمام المحكمة ، هذا إضافة إلى أن شاهد الاتهام الثاني عشر ذكر أنه تلقى تعليمات من الخرطوم بإعدام الأسرى ونقلها بنفسه لحسن أحمد دفع الله عند ملاقاته له في رحلة العسكرية من الدمازين إلى الكرمك . أما البيينة المباشرة والوحيدة التي وردت ضد عبدالله إبراهيم حبيب الله فهي أقوال شاهد الاتهام التاسع عشر محمد يوسف تلب والذي ذكر صراحة بأن المتهم عبدالله إبراهيم حبيب الله باعتباره رئيسه الأعلى - كلفه بالتوجه إلى الكرمك لقيادة حاميتها وأمره بأن يرجع على تيراب الذي تحرك قبله لتبلغه بأن ينفذ أوامر الخرطوم التي فهم أنها تتعلق بإعدام الأسرى وأنه نقل هذه المعلومات لتيراب الذي التقاه في الطريق إلى الكرمك وذكر أن تيراب طلب إليه تعيين اثنين من العسكريين لتنفيذ الأمر ، وفعل . وفي تقديرى أن أقوال هذا الشاهد يمكن دحضها لسببين السبب الأول أن هذا الشاهد كذب على المحكمة بأنه لم يكن هناك اتصال بينه والشاهد الحادى عشر حسن أحمد دفع الله بسجن كوبر بالخرطوم بحرى ، وهذه الواقعة المنكرة من قبله أكدتها شاهد الدفاع الثانى مصطفى محمد على الحاج وقد جاء فى إفاده هذا الشاهد بأن هناك اتصالاً ، يومياً بين شاهدى الاتهام الثانى عشر والتاسع عشر عبد كوه بين مكاني حفظهما ، وكان هذا الاتصال يتم بعد كل جلسة تحقيق فى هذه القضية وأن مثل هذا السلوك قد يدل على الترتيب وبناء الموقف بالتنسيق بينهما لتجنيد أية مسئلة جنائية ، هذا فضلاً عن أن الكذب فى جزء من الإفادة يعني أن الشاهد ليس مصدر ثقة وبالتالي فإن الاعتماد على أقواله فيه الكثير من الخطأة التى لا تحمد عاقبها .

وفى رأينا أن أقوال هذا الشاهد أيضاً ترقى لدرجة أقوال الشريك لأنه هو الذى نقل الأمر وهو الذى عين الجندي الجناد و قد كان أمراً طبيعياً أن يكون فى قفص الاتهام لولا أن لجنة التحقيق ارتأت ضد هذا المتهم بما فى ذلك أقواله عند الاستجواب أنها لا تؤدى إلى القول بأنه أصدر أمراً بإعدام الأسرى وأن ما دار بينه وحسن دفع الله من نقاش لا يرقى لمستوى الإغراء المطلوب لتأسيس الإدانة تحت المادة ٢٥١/٨٤ حيث لم يترتب على هذا النقل الشفوئ للإشارة

- بافتراض حلوثه - أى أثر ، بل نعتقد أن تدخل المتهم الرابع عبد الله إبراهيم حبيب الله عن طريق حسن دفع الله للتشفع لرئيس الجمهورية السابق كان له دور في حقن دماء بقية الأسرى الذين أرسلوا بالطائرة إلى الخرطوم حيث لم يصبهم أى أذى كما قال بقية الضحايا المشار بشأنهم الاتهام . والقاعدة الذهنية في القوانين الجزائية تقضي بوجوب تفسير الشك لمصلحة المتهم ، ونحن نرى أن البيانات التي طرحت يعتريها الكثير من الشك ، بل إن من أدلو بها هم أنفسهم موضع شك على ضوء مواقفهم من القضية ، وقد يقال أن تيراب الغالي قد أقر في مرحلة التحريات بأنه تلقى الأمر من المتهم حبيب الله إلا أن هذا الإقرار فضلاً عن عدوله عنه فإنه لا يقيس غيره على ضوء القواعد المعروفة في قانون الإثبات ، لذا ترى المحكمة أن المتهم غير مذنب تحت المادة ٢٥١/٨٤ أو أى مادة جزائية أخرى .

المتهم تيراب الغالي نوار :

الاتهام الموجه لهذا المتهم هو أنه حرض على قتل المرحوم محمد أحمد مصطفى ووجه إليه الاتهام تحت المادة ٢٥١/٨٤ من قانون عقوبات السودان لسنة ١٩٢٥ م ، والسؤال المطروح كالتالي :

هل قام المتهم بتحريض أحد الجنود بقتل المرحوم محمد أحمد مصطفى ؟

أعتقد أن الإجابة يتبعين أن تكون بالإيجاب . فقد أكد شاهد الاتهام الثاني عشر صديق أبو الحسن أنه بعد أن أتى من الكرمك لتبييلغ القيادة العامة عن طريق الدمازين تلقى أمراً من القيادة العامة وهو غير متأكد إن كان هذا الأمر من جعفر نميري أو غيره إلا أن فحوى الأمر هو إبادة الأسرى ، وعندما حاول أن يستفسر عن شخصية المتحدث ولرداة خط الاتصال التليفوني وقبل أن يتأكد سأله المتحدث عن رتبته وعندما علم أنه رقيب سأله إن كان هناك ضبابط . أجابه الشاهد بالإيجاب وسلم المحادثة للمتهم تيراب الغالي نوار . فيما بعد ذكر له المتهم أن هنالك تعليمات بإبادة الأسرى . واسترسل الشاهد في شهادته وذكر بأن المتهم تيراب الغالي نادي أحد الجنود الشماليين وأمره بتنفيذ

إعدام المرحوم إلا أن الجندي الشمالي تردد وفي الحال وجه المتهم أوامره الجندي آخر من أبناء الإقليم الجنوبي وأبدي الجندي استعداده ، وفي الحال طلب المتهم تيراب الغالي إلى الأسير السير في اتجاه حده المتهم تيراب الغالي إلى الأسير وأنباء أسيره عاجله الجندي الجنوبي بطلق ناري اخترق الرأس من الخلف وخر صريعاً . ويجدر بنا أن ننوه بأن لجنة التحقيق فشلت في التعرف على شخصية الجندي الجنوبي الذي نفذ أمر الإعدام . شاهد الاتهام الثالث عشر الرفاعي عمر ذكر على صحيفة ٢٢٧ من يومية التحرى بأن المتهم تيراب الغالي أخبره بأن التعليمات أن الشخص الحي يقتل وطلب إليه أن يعين الثين من الجنود لكي يحضره ، وذكر بأنه عين شخصين من الجنود وقاما بإحضاره وطلب إليه أن يطلب إلى الذين يقومون بالحفر - أى حفر المقابر - ألا يتذمروا إذا سمعوا طلاقاً نارياً وذكر بأنه فعلاً سمع صوت طلاق ناري بعد ذلك قاموا بدفع ثلاثة جثت إحدى هذه الجثث في مقبرة وحده والجثتان الأخريان في مقبرة واحدة . لقد وردت إفادات مشابهة من شاهدى الاتهام الحادى عشر حسن أحمد دفع الله والثالث عشر محمد يوسف تلب إلا أنها سبق أن طرحتها إفادات هذين الشاهدين جانباً ، ومع ذلك فإن هذه النقطة من البيانات وردت فيها إفادات متناقضة نعتقد أنه من الأصولي العرض لها بشيء من التفصيل لنرى ما إذا كانت إفادة هذين الشاهدين تماشى مع المجرى العادى للأمور أم لا . لقد جاء فى إفادة شاهد الاتهام الحادى عشر حسن أحمد دفع الله بأنه بعد عودته من قرية أونسه موقع الأحداث التى ضرب فيها الإمام الحادى طلب إلى شاهد الاتهام الثانى عشر صديق أبوالحسن بأن يحضر قواتهم الكامنة فى خلا الكرمل لمراقبة تهريب السلاح لتأمين المدينة ، وبعد أن أحضرت القوات طلب إليه أن يذهب إلى الدمازين لإبلاغ القيادة العامة بحدث ضرب الإمام الحادى وإرسال طائرة لأنجد الأسرى من الدمازين ، وفي حوالي الساعة السابعة مساء أخطره بوفاة المرحوم الإمام عبد الرحمن ، واستشار المتهم السابق مختار طلحة بضرورة قيامه شخصياً للدمازين بعد حدوث الوفاة ووافقه فى الرأى وعين أحد أفراد الشرطة لأنجد شاهد الاتهام الحادى عشر إلى الدمازين بعربة الشرطة وواضح من البيانات أن هذا السائق هو شاهد الاتهام رقم (٤) حسن أحمد آدم الملقب (بحنتوب) .

ذكر الشاهد الحادى عشر بأنه بعد مسيرة (٦) ساعات تقريباً وعلى بعد ساعة من مدينة الدمازين قابل المتهم تيراب الغالى على رأس قوة لا يذكر عددها ولكن كانت مع القوة أكثر من عربتين ، ووجد الرقيب صديق أبوالحسن شاهد الاتهام الثانى عشر ضمن القوة وعندما سأله عمما فعله بشأن الأوامر التى أعطاها له بالكرمك ، ذكر له - أى صديق أبوالحسن - بأنه نفذ التعليمات بمحاذيرها إلا أن هنالك تعليمات من المتهم عبدالله إبراهيم حبيب الله بدن الجثث وإبادة الأسرى ، وأنه كلف بمرافقة فرقة الإعدام لأنه يعرف الطريق . ذكر شاهد الاتهام حسن أحمد دفع الله بأنه عرج على الملازم تيراب الغالى الذى أكد له الأوامر وعلى هذا الأساس تركهم وواصل سيره إلى الدمازين . شاهد الاتهام الثانى عشر صديق أبوالحسن أكد أنه ذهب إلى الدمازين بناء على تعليمات شاهد الاتهام الحادى عشر حسن أحمد دفع الله واتصل بالقيادة العامة من الكبانية العامة وأبلغ المعلومات للمقدم كمال . ابشر بوفاة شخصين وجود الأسرى ، ثم انتقل للقيادة بالدمازين انتظاراً لتعليمات من الخرطوم ووجد الضابط التوبتجي هو تيراب الغالى والذى أرسل بدوره للرائد حبيب الله باعتباره رئيسه الأعلى وحضر حبيب الله وتم اتصال بالتلفون وتلقى تعليمات من حبيب الله يرافقه الملازم تيراب لدفن الموتى وإفاده بأنه جمع رجاله وتحرك مع تيراب . أما شاهد الاتهام الثالث عشر الرفاعى عمر فقد أكد أنه كلف بحمل جثث الإمام الحادى وسيف الدين الناجي فضلاً عن المرحوم محمد محمد مصطفى الذى كان حياً وقتها وذكر بأنه أثناء سيره إلى الدمازين بالجثث والأسير قابل قوة بقيادة تيراب غالى . وشاهد الاتهام التاسع عشر محمد يوسف تلب وبقى معهم حتى تنفيذ قتل المرحوم محمد محمد مصطفى ودفن الجثث . أما شاهد الاتهام التاسع عشر فقد ذكر أن المتهم عبدالله إبراهيم حبيب الله استدعاه وأمره بالتوجه لقيادة حامية الكرمك وأن يرجع على المتهم تيراب الغالى ويبلغه بأن ينفذ تعليمات الخرطوم التى فهم أنها تعنى إعدام الأسرى . وتوجه فعلاً وفي الطريق وجد تيراب الغالى على رأس قوة ومعهم ثلاثة عربات ديمبل وعربة استيشن تخص الاستخبارات ، وعند وصوله أخبر تيراب بالأوامر وفعلاً

تم إعدام الأسير الحى وعندما بدأ الجنود في الدفن توجه هو لمنطقة الكرمك. أما شاهد الاتهام الرابع فقد أكد أنه أخذ أحد ضباط الجيش إلى الدمازين وفي الطريق قابلهم مجروس واقف بجانب الطريق ونزل الضابط وتوجه ناحية العساكر بموقع المجروس وسمع حديثاً دار بينهم ثم سمع صوت طلق ناري ثم عاد الضابط وواصلوا سيرهم حتى الدمازين ثم عاد إلى الكرمك وبرفقته ضابط لا يتأكد إن كان هو نفس الضابط أو غيره . هنالك تناقض بين في أقوال الشهود في هذه النقطة وبالذات عن تحرك الشاهد التاسع عشر محمد يوسف تلب وما إذا كان قد تحرك مع الملازم تيراب ابتداء أم أنه لحق به فيما بعد ، وما إذا كان شاهد الاتهام الحادى عشر حسن أحمد دفع الله قد حضر لحظة إعدام المرحوم محمد أحمد مصطفى أو لا .

على أية حال فإن حسب رواية شاهد الاتهام الثالث عشر الرفاعي عمر فإن محمد يوسف تلب كان موجوداً في مسرح الحادث ولا يهم إن كان وصل مزامناً للملازم تيراب الغالي بحسب رواية المتهم عبدالله إبراهيم حبيب الله أم لا . ورغم ورود بينة على لسان شاهد الاتهام الرابع حسن أحمد آدم (حتنوب) بأن الضابط الذى كان يحمله للدمازين قد حضر لحظة الإعدام إلا أنها تستبعد هذا الاحتمال والاحتمال الأرجح هو أن يكون سماعه للطلقة عند عودته من الدمازين وهو يقل شاهد الاتهام التاسع عشر محمد يوسف تلب ويجوز أن يرد هذا التناقض لطول المدة . على أية حال هذه البيانات التي وردت على ألسنة شهدو الاتهام الذين استعرضنا إفادتهم تقطع بوجود المتهم تيراب الغالي في مسرح الحادث ، وقد أكد كل هؤلاء الشهود بأن المتهم تيراب الغالي هو الذى أصدر الأمر بإعدام المرحوم محمد أحمد مصطفى . إن توجيه مثل هذا الأمر يتضمن تحريضاً مباشراً في معنى المادة (٨٢) وأيدلخ في معنى الإغراء المعروف في النص ، وبما أن هذا التحريض قد أنتج أثره بقتل المرحوم محمد محمد مصطفى فإن أركان المادة ٨٤ من قانون العقوبات تكون منطبقة تماماً .

والسؤال الثاني المطروح هو : هل قتل المرحوم محمد محمد مصطفى قتلاً عمداً ؟ هذا السؤال يمكن الإجابة عليه بالإيجاب - لقد ترتب على التحريض

- ١٣٩ -

أن أطلق أحد الجنود النار على المرحوم محمد أحمد مصطفى في رأسه حتى هشمت الجمجمة وقد كان ضربه من الخلف وهو أعزل يسير نحو حمامه لا حول له ولا قوة، ولم يكن يتلمس سوى القبلة بحسب ما ذكر الشهود. وخر صريعاً في الحال وقد أكد التقرير الطبي أنه -أى المرحوم - توفى نتيجة لإصابته في الرأس، أما ركن القصد فقد ثبت بما لا يدع مجالاً للشك وقد كانت هنالك نية مبيتة لإزهاق روحه وقد تجلى هذا القصد في السلاح المستخدم واختيار أكثر الواقع حساسية في الجسم الإنساني وهو الرأس، مع الغياب التام لأى عنصر من الأعذار القانونية المنصوص عليها في قانون العقوبات سواء في المادة ٢٤٩ و ٥٥ منه . وبالتالي فإن أركان المادة ٢٥١ متوفقة بما لا يدع مجالاً للشك ، وأن مجرد عدم معرفة من وجهه إليه التحرير لا يعني انعدامه ، لأنه ثبت أن المتهم حرض شخصاً بعينه وقام بالقتل بناء على هذا التحرير . بالنسبة للدفع التي طرحت من قبل الدفاع هي أن المتهم كان ينفذ أمراً عسكرياً ، وأنه يعاني من اضطرابات نفسية . وبالنسبة للأضطرابات النفسية فقد عالجتها من ناحية إجرائية المادة ٢٦٨ من قانون الإجراءات الجنائية لسنة ١٩٨٣ وجاء فيما معناه أن المحكمة إذا ظهر لها أثناء المحاكمة ما يحمل على الاعتقاد بأن المتهم مختل العقل وأنه نتيجة لذلك غير قادر على الدفاع عن نفسه فيجب وقف المحاكمة وإحالته المتهم لكي يفحص بواسطة الطبيب أو أطباء مختصين ويكون لراماً عليهم أن يقدموا تقريراً بنتيجة الفحص للجهة التي تتولى المحاكمة . لم تلاحظ المحكمة أية تصرفات غير عادية للمتهم ، وهي المؤشر للجنون سواء من أفعاله أو أقواله ، بل إن أقوال المتهم جاءت متسلقة في جميع مراحل القضية منذ مرحلة التحريات وحتى إدلائه بأقواله أمام المحكمة الكبرى.

وعلى أية حال فإن ما ورد في التقرير الطبي مستند الدفاع رقم (١) لا يشير إلى أن المتهم يعاني من جنون دائم أو مؤقت أو عاهة عقلية وفقاً لأحكام المادة ٥٠ من قانون العقوبات ، وأن الاستثناء السادس والوارد في المادة ٢٤٩ (أ) والذي يعد أكثر ملاءمة لهذا التقرير لا ينطبق على حالة المعرض بل هو استثناء شرع بغرض التخفيف من مسؤولية القاتل استثناء على قضاء المحكمة

- ١٤٠ -

العليا في قضية حكومة السودان ضد نفيسة دفع الله المنشور في المجلة القضائية ١٩٦١ صنفحة ١٩٩ وبالتألي فلأجال لمناقشة هذا الدفع ، ونرفض التقرير المقدم ، ولعل الملاحظ من التقرير أن إعداده كان الغرض منه إطلاق سراحه بالضمان فقط .

نأى للدفاع الثاني والمتصل بالأمر الموجه من الرئيس الأعلى ، فقد نصت المادة (٤٤) من قانون عقوبات السودان باتفاقه الجرم إذا وقع الفعل من شخص ملزم قانوناً بالقيام به أو يقره القانون على فعله ، ومع تمسك الدفاع بهذا الدفع إلا أن الاتهام أشار لأحكام صدرت من المحكمة العليا الموقرة في قضية ترحيل الفلاشا المنشورة في كتاب أشهر المحاكمات السياسية في السودان إعداد وترتيب القاضي هنري رياض صنفحة ٨١ طبعة دار الجليل بيروت ، وقد استند الاتهام على رأى المحكمة حيث أوردت ، في معرض شرحها للمادة المذكورة ما يلى (إن الدفع الرئيسي الذي يعتمد عليه المتهم هو أنه فعل ما فعل بصفته ضابطاً في قوة نظامية وكان ملزماً بتنفيذ الأمر الصادر إليه من رئيسه الأعلى ولمسنا نجدة كبيرة عناء في الرد على هذا الدفع ، فكما أن القاعدة الشرعية أن لا طاعة مخلوق في معصية الخالق فكذلك القاعدة القانونية الوضعية أن لا طاعة لمرؤوس في أمر مخالف للقانون مخالفة بينة لأن المرؤوس إن أطاع الأمر في هذه الحالة يكون قد خالف القانون وهو عالم بذلك فيصبح مسؤولاً شخصياً عن تلك المخالفة ولم نجد فيما ساقه الدفاع من اقتباسات أو سوابق ما يقول بغير ذلك ، وقد كرست هذه القاعدة في محاكمة مجرمي الحرب في نومبرج وطوكيو بحيث أصبحت قاعدة من قواعد القانون الدولي ولعل أشهر تطبيق لهذه القاعدة حديثاً هو إدانة الملازم الأمريكي الذي أباد الفيتنيين العزل في قرية ماث لار وهذا هو موقف القانون السوداني) .

وإذا تلمسنا رأى الفقه المقارن في مسألة الأوامر التي تصدر لل العسكريين ومدى رقابة المرؤوس على مشروعية الأمر ، فقد جاء في كتاب العلامة الدكتور محمود محمود مصطفى في كتاب الجرائم العسكرية في القانون المقارن طبعة ١٩٧١ دار النهضة العربية على صحفة ٦٨ في الفقرة ٣١ ما يلى :

(المسألة الهمة في الفقه هي: هل يجوز للمرؤوس أن يناقش مشروعية الأمر بعناصره الثلاثة المتقدمة - وهي وجود أمر من رئيس واجب طاعته ومضمون الأمر يدخل في سلطته وأن يكون تنفيذ الأمر مما يدخل في واجبات المرؤوس - ونبادر إلى القول أنه لا يوجد تشريع يأخذ بمبدأ الخضوع المطلق أو الطاعة العميماء، كما أنه لا يوجد تشريع يقصد التزام المرؤوس بالطاعة على الأوامر المشروعة من الناحية الموضوعية وإنما تأخذ المشروعات محل وسط فإذا وصف عدم المشروعية في الأمر واضحًا فيجب على المرؤوس الامتناع عن تنفيذ الأمر هنا ولا خلاف بين القانون العام والقانون العسكري. فإذا أمر الرئيس مرؤوسيه بارتكاب جريمة قتل أو استعمال قسوة أو تزوير أو اختلاس فأطاع أمره كان الاثنين مسئولين عن الجريمة، فليس على المرؤوس أن يطيع رئيسه في أمر محظوظ يعلم هو أن القانون يعاقب عليه. ولا يشفع للمرؤوس أن يدفع بهمه بقانون العقوبات؛ فمعلوم أن الجهل أو الغلط في قانون العقوبات لا يصلح دفاعاً ولا ينفي سوء القصد). وقد تناول المرجع المشار إليه في الفقرة (٣٣) صفحة ٧١ مسؤولية المرؤوس عن تنفيذ أمر غير قانوني فذكر بأنه (لا صعوبة فيما لو كان المرؤوس يعلم أن الأمر غير قانوني فهو مسئول عن الجريمة التي يرتكبها تنفيذاً لهذا الأمر ولكنه قد لا يعلم بذلك أو على الأقل يجهلحقيقة ما يرتكبه تنفيذاً للأمر هل هو جريمة أو عمل مباح؟ وليس المقصود هو الجهل أو الغلط بأن الفعل يكون جريمة طبقاً لقانون العقوبات فلا يصلح ذلك عذرًا وإنما المقصود هو عدم العلم يقيناً بالواقع أو الظروف التي تجعل من أمر الرئيس وبالتالي تنفيذه عملاً مباحاً. أى الغلط في صيغة الأمر هل هو رئيس أم لا أو الغلط فيما إذا كانت سلطته تتسع لمضمون الأمر وفيما إذا كان التنفيذ يدخل في واجبات المأذون. ولا صعوبة كذلك فيما لو لم يكن عدم مشروعية الأمر واضحًا فعندئذ يحق لمنفذ الأمر أن يدفع بانتفاء علمه بعدم المشروعية ولكن الصعوبة فيما لو كان عدم المشروعية واضحة Marifesc Marifesc ذلك يتصور أن ينخدع البعض فينفذ الأمر معتقداً بمشروعيته فهل يعد مسؤولاً عن الجريمة أو لا يعد على أساس الغلط في الواقع، ولزيادة الإيضاح هل يؤخذ في

- ١٤٢ -

تقدير عدم المشروعية بضابط موضوعى أو بضابط شخصى وفي هذا الضابط الأخير هل يؤخذ بمعيار الشخص العادى أو بمعيار نفس الشخص الذى وقع فى الخطأ .

إن غالبية التشريعات تأخذ بمعيار موضوعى فمتى كان من الواضح فى الأمر عدم المشروعية أى أن تنفيذه ينطوى على جريمة فإن على المرؤوس أن يكتفى عن تنفيذه وإلا كان مسؤولاً ، ويعمل هذا بأن يستوى أن يعلم المرؤوس بأن الأمر غير مشروع أو يكون فى استطاعته أن يعلم ذلك وهو ما يتتحقق متى كان وجه الإجرام واضحًا فى الأمر . ولمعرفة ما إذا كان الغرض الإجرامى واضحًا يرجع إلى مقاييس الشخص المتوسط فى ظروف المتهم من حيث درجته العسكرية وثقافته وأقدميته وغير ذلك مما ينخدع به جندي لا يخدع ضابطاً وهكذا . ولا يستطيع المفدى أن يدفع مسئوليته بصدره الأمر من شخص له نفوذ عليه بحكم رئاسته فهذا لا يكفى لقيام الإكراه أو الضرورة ، ولذلك قد يقترن الأمر بالتهديد بخطر جسيم على النفس إذا لم ينفذ وعندئذ يصبح الدفع بالإكراه فإذا كان أمر المرؤوس أن يواجه الخطر الذى يكون مصدره العلو فليس عليه أن يواجه مثل هذا الخطر إذا كان مصدره هو رئيسه .

على أن بعض التشريعات يأخذ بمعيار شخصى ، فلا يكفى أن يكون الغرض الإجرامى واضحًا فى الأمر وإنما العبرة بالعلم الحقيقى لعدم مشروعية الأمر . ويواصل الدكتور محمود محمود مصطفى فى بسط وجهة نظره على صفحة ٧٣ ويقول (وفى اعتقادنا أن المذهب الشخصى ، يفضل المذهب الموضوعى فهو يتفق مع المبادئ العامة التى تقضى بأن القصد يبنى على العلم اليقينى فلا يستتبع من واقعة ولا يبرر للخروج على ذلك فى الجرائم العسكرية بل إن التزام القاعدة أولى فيها ، فإذا كان القانون العام يوجه للجميع فإن القانون العسكرى يخاطب العسكريين الذين لا يترك لهم النظام العسكرى مجالاً فسيحًا للتردد أو التتحقق من صحة ما يصدر إليهم من أوامر .

وأخيرًا يلاحظ أنه فى التطبيق资料 العمل بقترب النظام فقلما يطرح فى النظام

- ١٤٣ -

الموضوعى الدفع بالغلط في الإباحة ولو كان هدم مشروعية الأمر واضحاً ما لم يكن الدفع بالغلط في القانون) .

واضح من الشرح أعلاه أن الدكتور محمود محمود مصطفى يفضل الأخذ بالمدحوب الشخصى والذى كان من الممكن أن يقييد المتهم في دفاعه إلا أن محكمتنا ملزمة بالأأخذ بما يستقر عليه فقه القضاء السوداني على هدى السوابق القضائية التى تصدر من المحاكم الأعلى وفقاً لما قررته المحكمة العليا فى قضية عوض عبد الرحمن ضد محمد حسن الغول المجلة ١٩٧٥ صفحة ٢٠٢ . وعليه فإننا نرى بأنه لا مجال من الاعتراض على ما قررته المحكمة العليا فى قضية تهريب الفلاشا ونقرر بأن المتهم لا يستفيد من هذا الدفع . أما بالنسبة للدفع المشار ابتداء والخاص باستفادة المتهم من المادة (٢) من قانون الإعفاءات لسنة ١٩٧٧ فإن ما ينطبق على هذا المتهم لا يخرج عن رأينا الذى سبق أن أوردناه بالنسبة للمتهم الثالث وداعمة على سيد أحمد .

لما تقدم من أسباب تقرر مسئولية المتهم عن المواد ٢٥١/٨٤ من قانون عقوبات السودان لسنة ١٩٢٥ .

(ملحق بالصور)

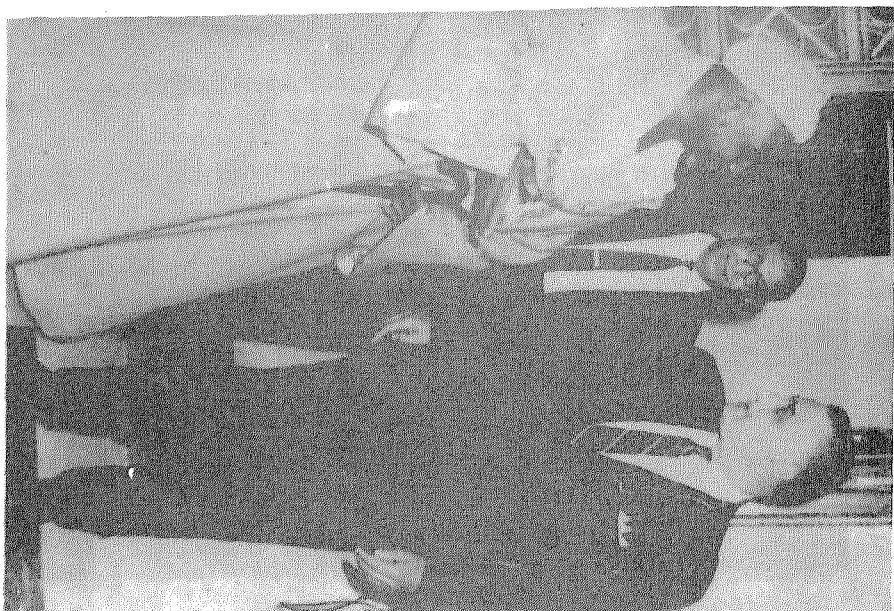


الإمام عبد الرحمن المهدى مع الزعيم الراحل محمد نجيب

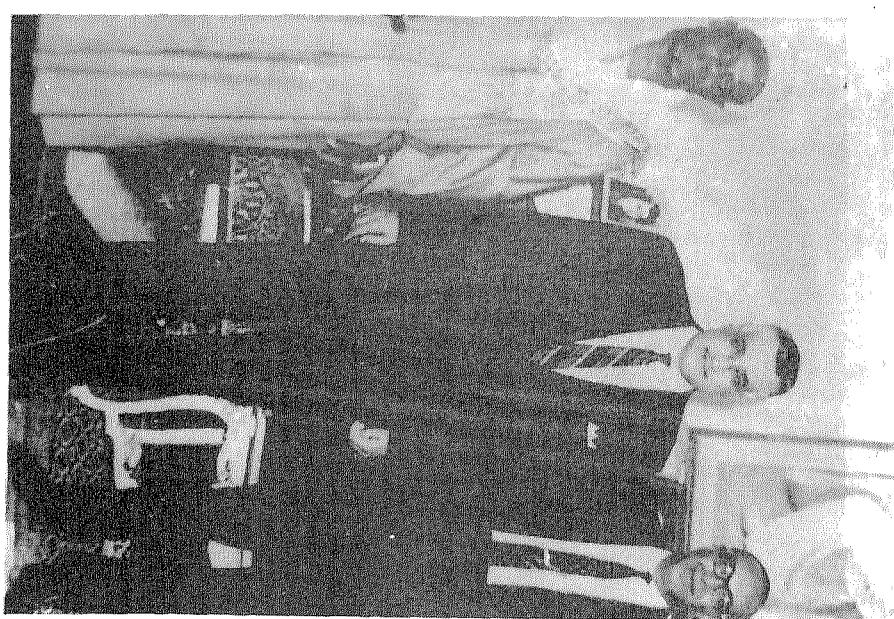


الإمام الهادى المهدى يستقبل الملكة اليزابيث

الإمام الملاوي المهدى
مع الزعيم الراحل جمال عبد الناصر



الإمام الملاوي المهدى مع الزعيم الراحل
جمال عبد الناصر

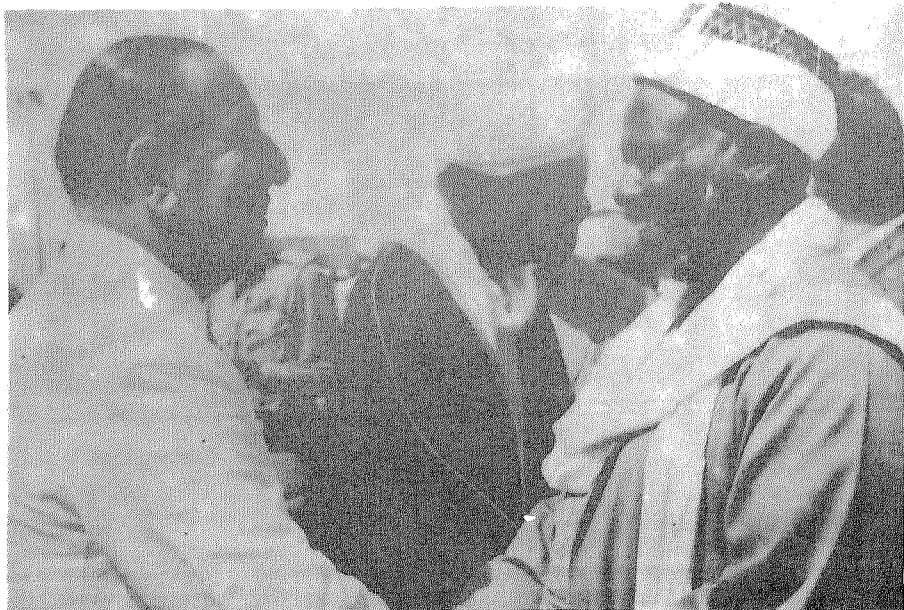




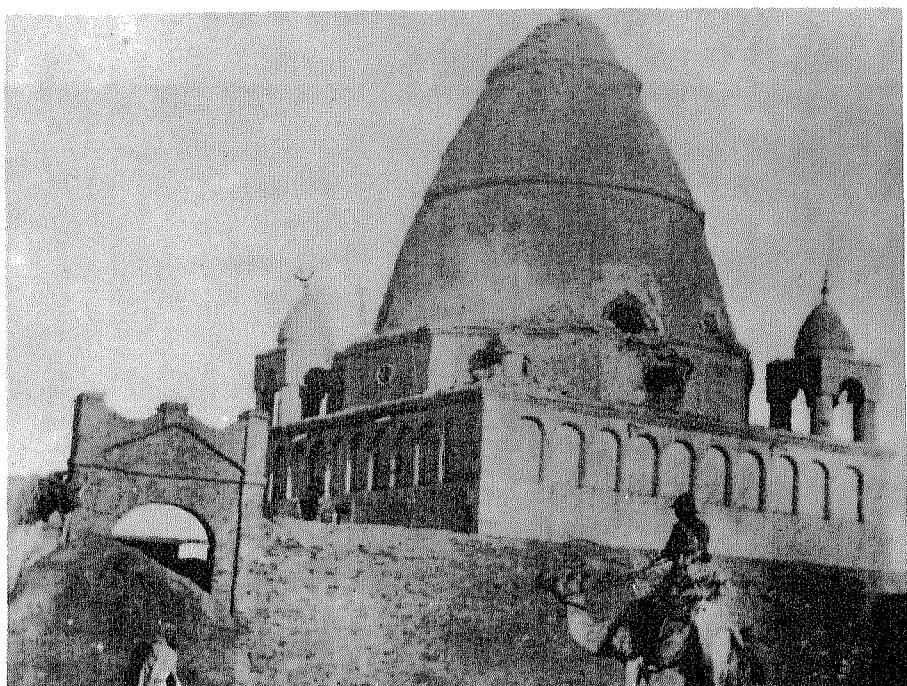
الإمام الهادى في استقبال
سمو الشيخ الصباح السالم الصباح



الملك فيصل والإمام الهادى (أمدرمان)

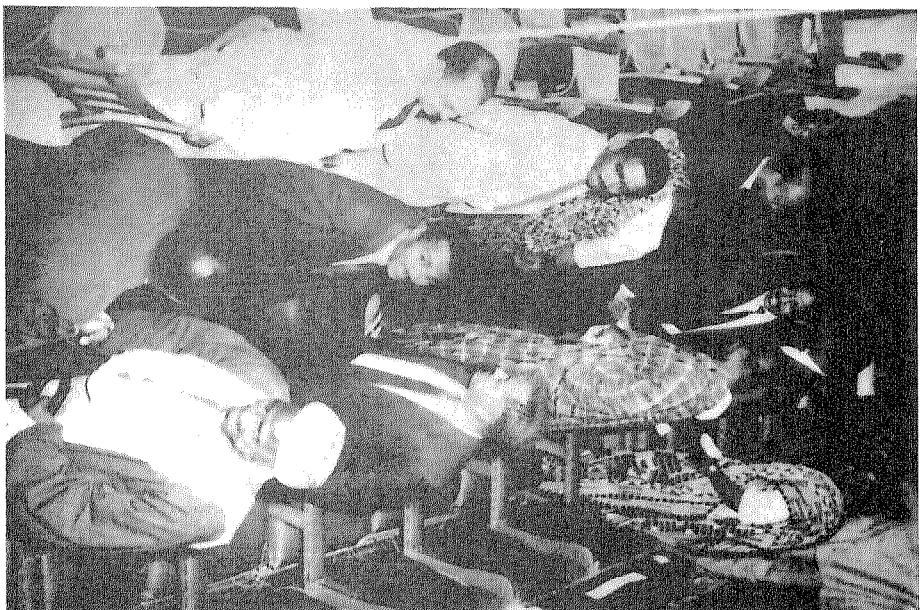


الإمام الهادى المهدى يستقبل الرئيس اللبناني
شارل الحلو

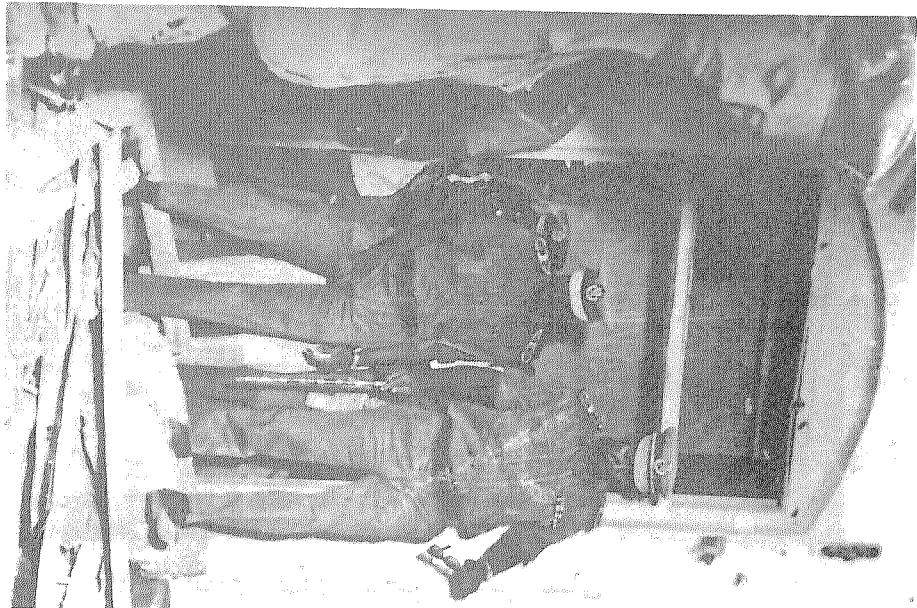


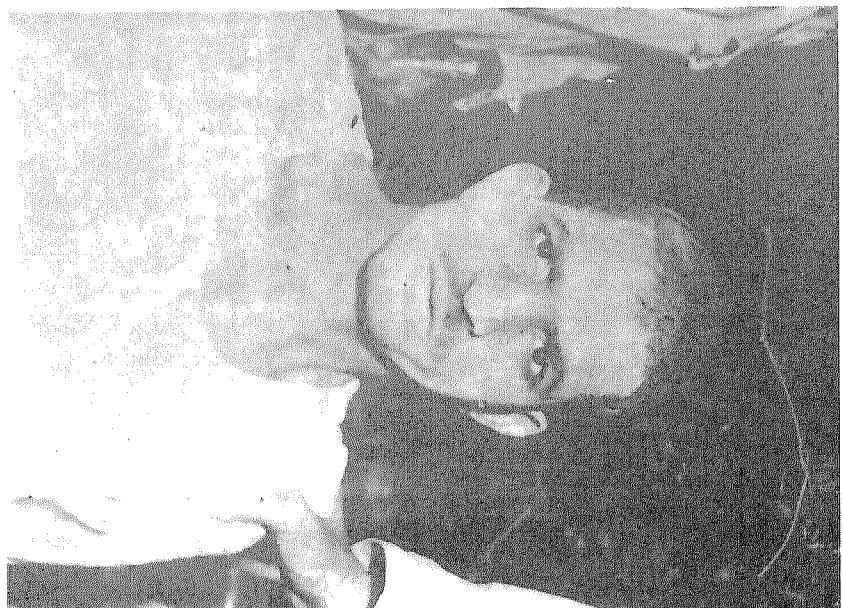
قبة المهدى بعد معركة كربلا ١٨٩٨ بعد تعرضها
لقصف قوات الاحتلال المصرى الانجليزى

الإمام الطاوى الهدى يشارك
في مؤتمر المائدة المستديرة

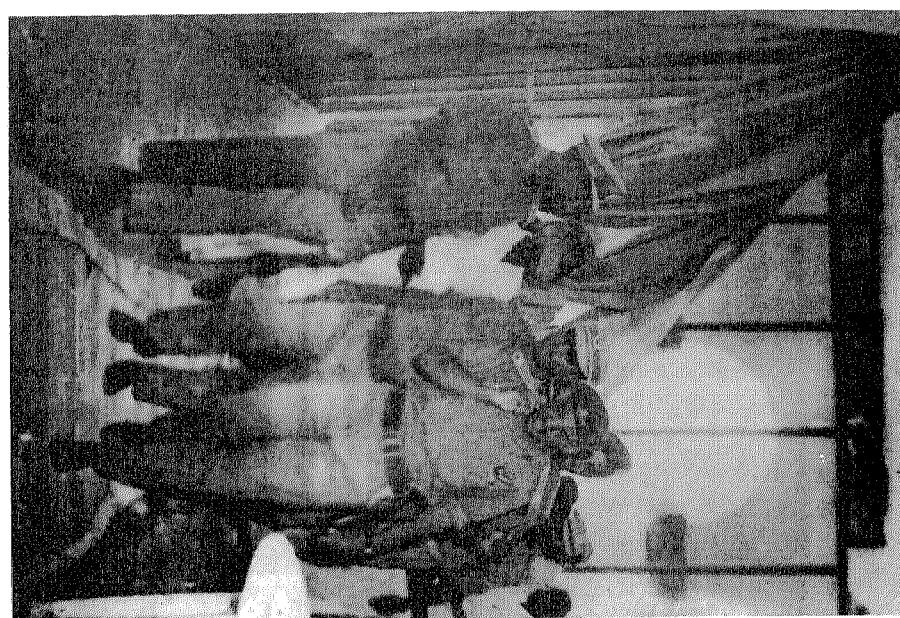


دعاة نورية الأمس وناهضوا ثورة الشعب وقوته
يتحللون في صلف على حظام جريمة الكراه

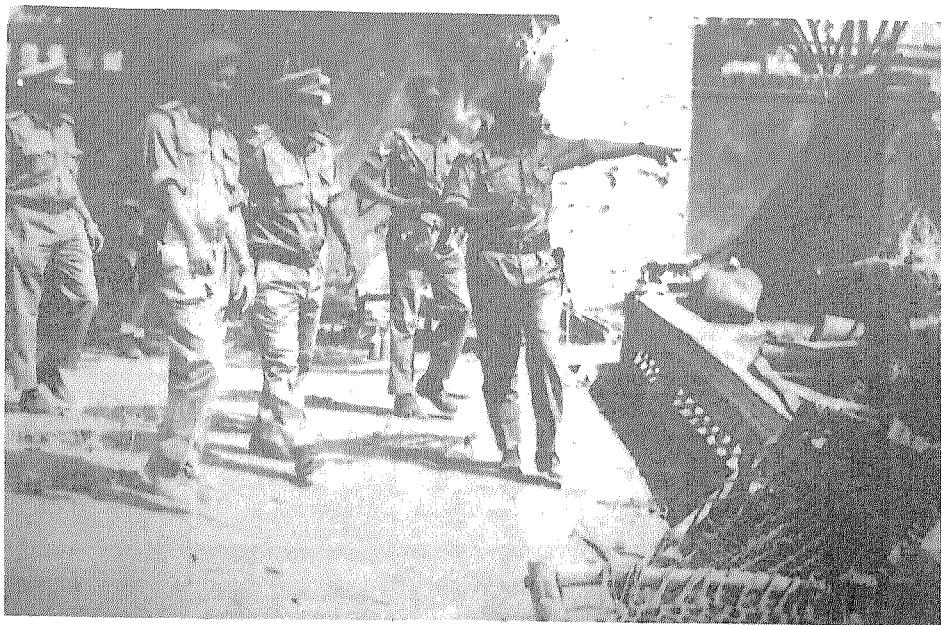




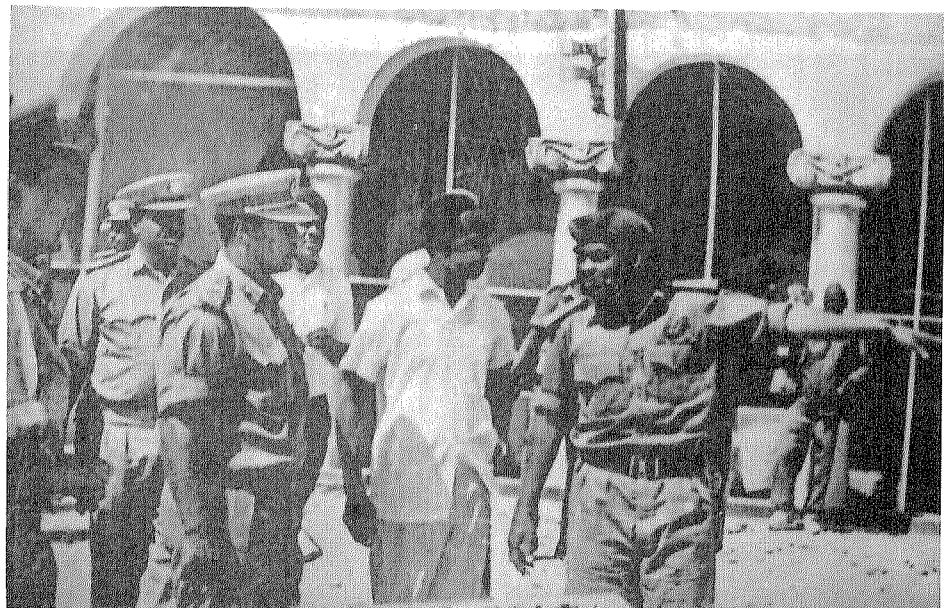
الباطل بشير حاتم جعيل
أسرة الشابة دنبه حاتم



سيفاء حرثيم الكراة تكسو سواداً وحارة
المخربة أيام أبريل ١٩٧٠
معنوي العريبي، أبو القاسم محمد إبراهيم، خالد حسن عباس



ترى ماذا يتقددون وهم صناع الجريمة النكراء



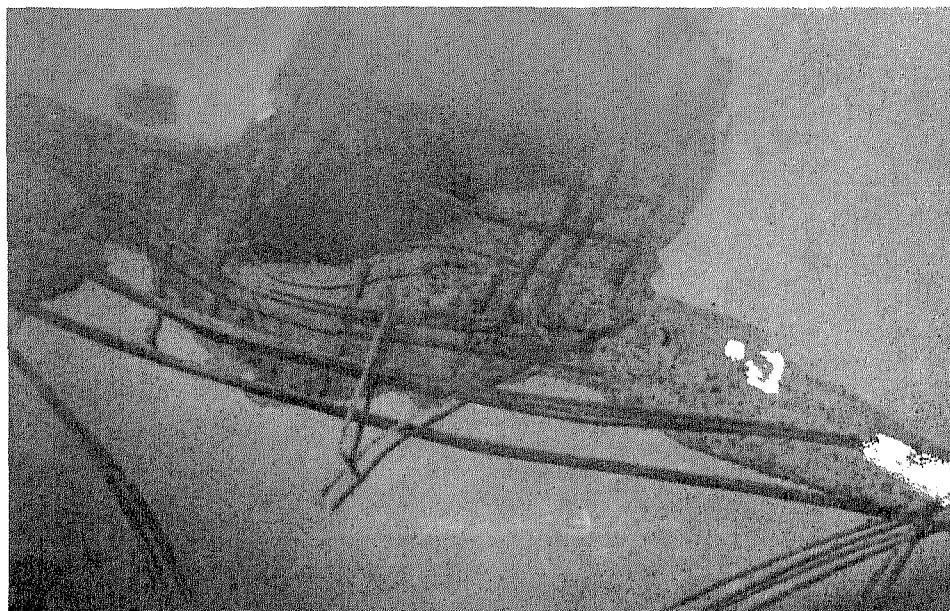
أبو القاسم يوسف لميري
كيف أنهم أفلحوا في تدمير الآمنين



أفراد الضفة المبادة يتقدون دماراً من صنعهم
أبا أبريل ١٩٧٠



الصادق الهاشمي المهدى ، نصر الدين الهاشمى المهدى
مقدم صلاح ، شيخ القرية ، واثنان من الشهود
وال訳者 بمكان الحادث

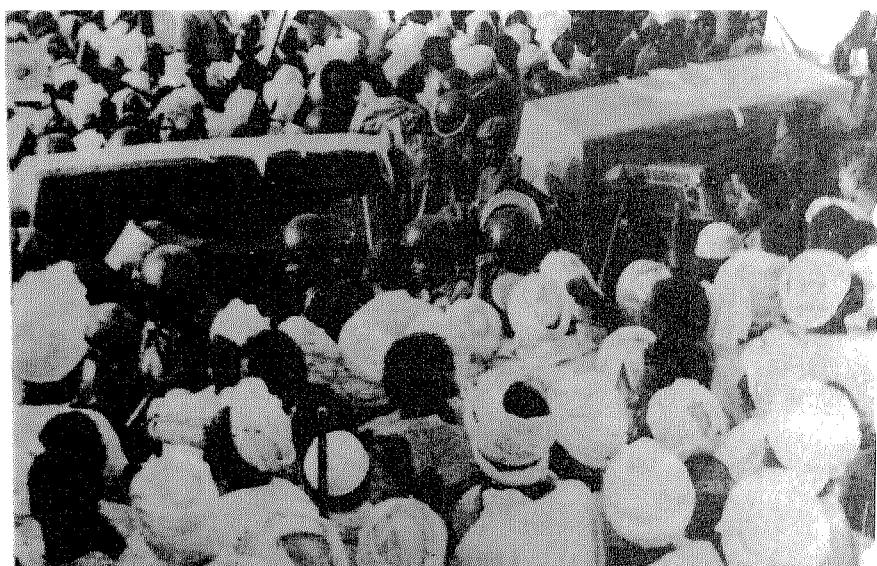


دمروا السرای غیر عابین بأرواح الأطفال
والنساء والشيوخ
أبا مارس ١٩٧٠

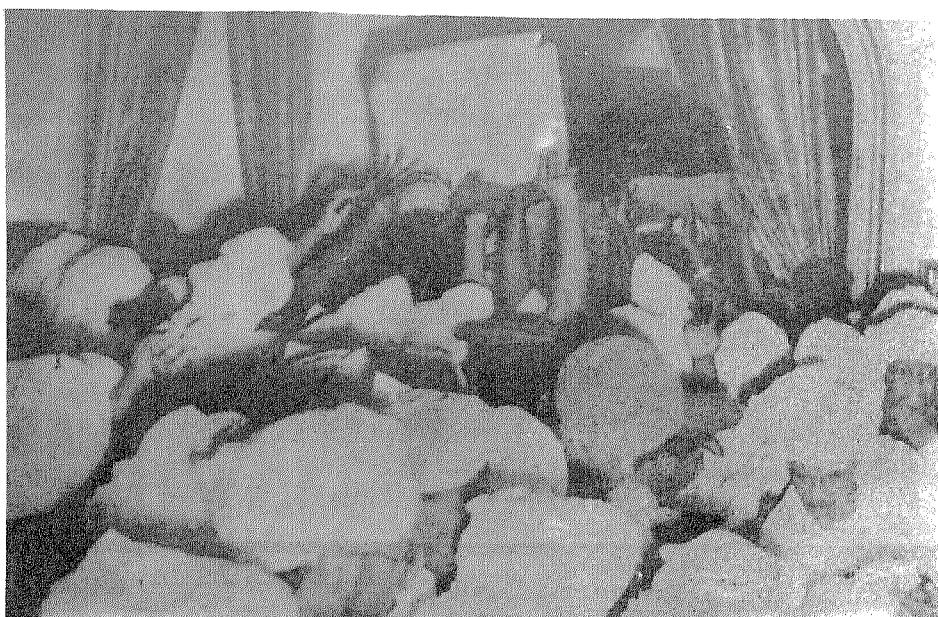


الجزيرة أبا مارس ٧٠

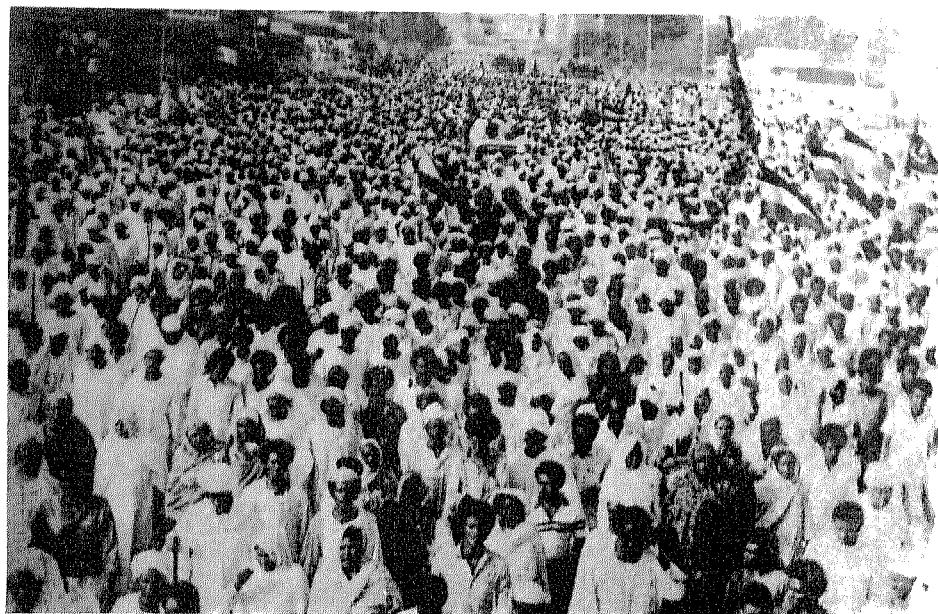
الشهيد سيف الدين الناجي



نقل رفاة الشهداء
الإمام الهادى المهدى وسيف الدين الناجى



رفة الشهيد الإمام الهادى داخل قبة المهدى بأمدرمان



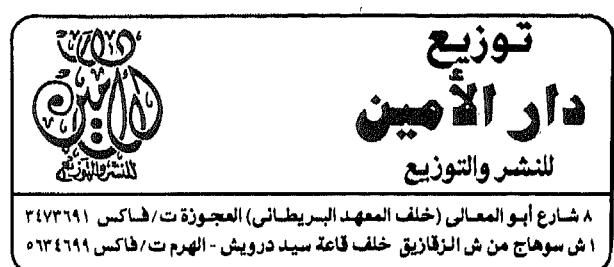
حشود الشعب السوداني في يوم نقل رفاة الشهداء

الفهرس

الصفحة	الموضوع
٣	الإهداء
٥	مقدمة
٧	خلفية تاريخية
١٣	أحداث الجزيرة أبا
٤٩	أحداث الكرمك
٥٣	كيف واجهنا الحياة بعد مقتل الإمام
٦١	ردود الفعل للمقالات التي صدرت بمجلة التضامن
١٠٧	وقائع الجلسة الختامية لمحكمة قتل الإمام الشهيد المادى المهدى ومرافقيه

رقم الإيداع ٥٤٥٩ لسنة ١٩٩١





• دكتور الصادق الهادي

عبد الرحمن المهدى

• تلقى تعليمه الابتدائى بمدرسة
الشرقية بالجزيرة أبا حتى
أحداث ١٩٧٠ ، ثم واصل
بالركابية بأمدرمان .

• الثانوية بأمدرمان الأهلية الحكومية العامة ثم العليا .

• التحق بجامعة الخرطوم كلية العلوم ثم واصل بجامعة الجزيرة
حيث تخرج منها طيباً عام ١٩٨٦ .

• عمل بمستشفيات العاصمة القومية ثم بمشروع مكافحة الغدة
 الدرقية بالفاشر .

• يحضر الان بجامعة لندن للتخصص في أمراض القلب .

